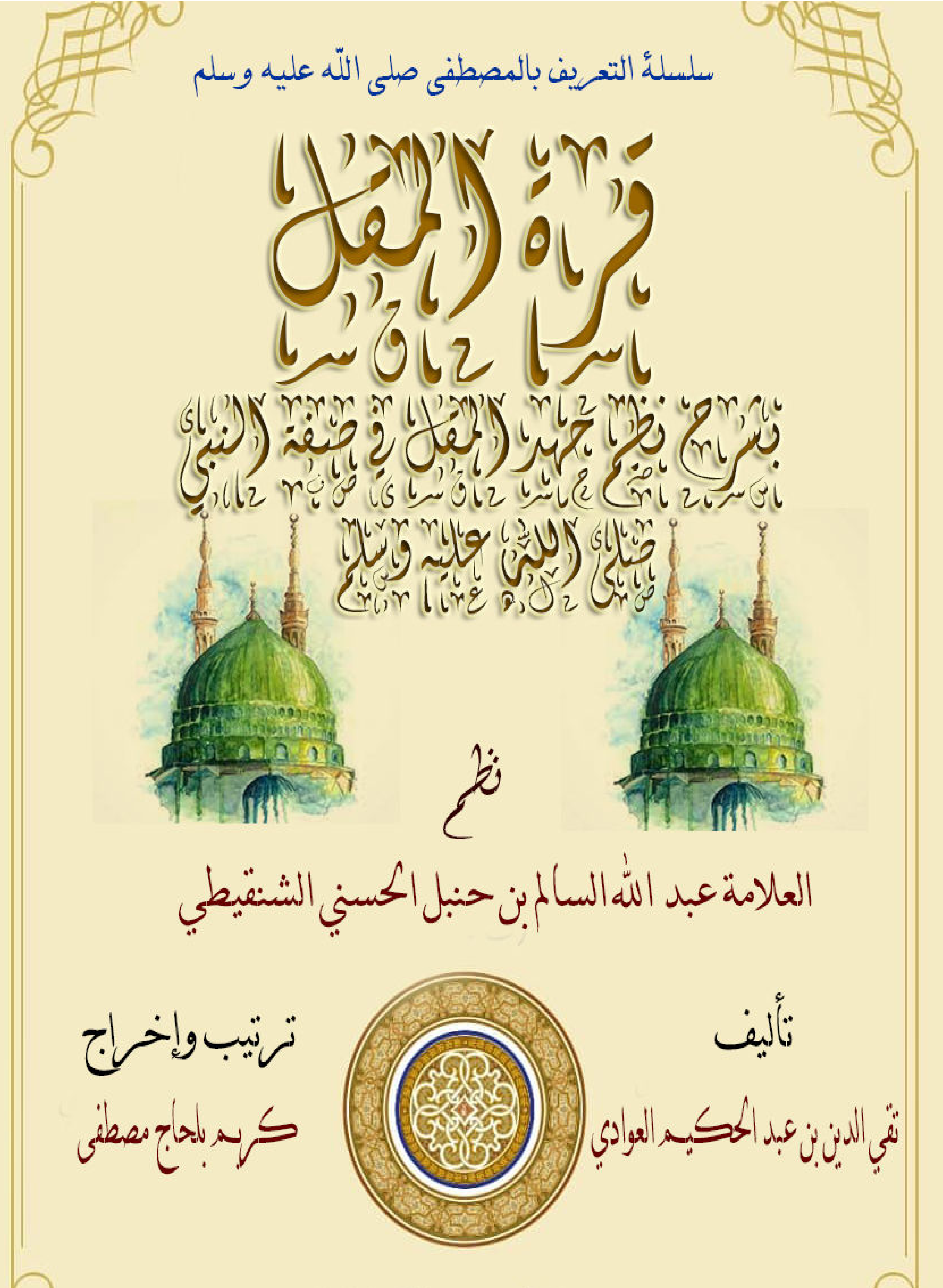
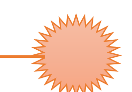


منشورات مركز الإمام مالك الإلكتروني

الطبعة الأولى

2021/ 1443

النّاشر : مركز الإمام مالك الإلكتروني



قُرّةُ المُقَل

بشرح

نظم جهد المقلّ

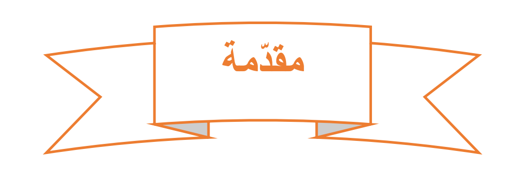
في صفة النبيِّ ﷺ

نظم العلاّمة عبد الله السالم بن حنبل الحسنِي الشنقَيطيِ

تأليف

تقي الدين بن عبد الحكيم العوّادي

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا شرح مختصر لطيف لنظم الشّمائل النّبوية للعلاّمة عبد الله السّالم بن حنبل الحسني الشنقيطي يوضّح مبانيه، ويجلّي معانيه، جمعته لنفسي زمن الاشتغال بالنّظم حفظا ومدارسة، ثمّ بدا لي نشره لينتفع به من شاء من طلبة العلم وعامّة المسلمين.

قصدت فيه إلى الاختصار والإيجاز مع مزج الشّرح بالأبيات، معتمدا في ذلك على كتب الفنّ كشروح الشّمائل للترّمذي وشروح الشّفا للقاضي عياض والمواهب وشرحه وغيرها، ولم أثقل حواشيه بالإحالات وتوثيق النّصوص لاشتهار مظانّها، ولم أشتغل بتخريج الأحاديث والحكم عليها لأنّها مبثوثة في كتب أهل العلم صالحة كلّها للاحتجاج في هذا الباب(1).

وسمّيته "قُرّة المُقَل بشرح نظم جهد المُقِلّ"، عسى أن تقرّ به عين كلّ محبّ للحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

والله أسأل أن ينفع به، وأن أنال به شفاعة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجواره في الدّنيا والآخرة، وأن يكتبه في موازين حسنات والدي ووالدتي ومشايخي.

---

(1) ودائرة الاحتجاج أوسع من دائرة الصحيح والحسن، كما لا يخفى.

قال الإمام العراقي في ألفية السيرة:

وَلْيعْلَمِ الطَّالبُ أنَّ السِّيرا   تجمَعُ ما صحّ وما قد أُنكِرا

والقَصْدُ جمْعُ ما أتى أهلُ السّيَرْ   بِهِ وإنْ إسنادُهُ لَمْ يُعْتَبَرْ

فإنْ يكُنْ قد صحَّ غيرُ ما ذُكِرْ   ذَكَرْتُ ما قد صحّ مِنْهُ واستُطِرْ

وإني لمدين بالشّكر لكلّ من أبدى لي ملاحظة أو أكرمني بتوجيه أو اقتراح أو تفضّل عليّ بتنسيق أو مراجعة أو تشجيع أو دعوة بظهر الغيب.

وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير لعفو ربه

تقي الدين بن عبد الحكيم العوادي

في الروضة الشريفة

بعد ظهر الأحد 19 صفر 1443

الموافق لـ26 سبتمبر 2021

ترجمة النّاظم

- **اسمه ونسبه:**

هو عبد الله السالم بن محمدو بن حنبل الحسني الشنقيطي، ينحدر من أسرة عرفت بالعلم والعمل به والصلاح والعز والكرم والقيادة في القبيلة، وينتهي نسبه إلى النبي ﷺ.

- **مولده ونشأته وتحصيله العلمي:**

ولد سنة ١٢٩٣هـ في شوبك – موريتانيا.

حفظ القرآن الكريم على عمته "ميمونة بنت حنبل" التي اعتنت بكفالته وتعليمه ورعايته بعد وفاة والدته رضيعاً، ووفاة والده وهو في الثامنة من عمره.

تعلم على بعض علماء أسرته مبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية –كما هي العادة لدى أبناء قومه– ثم توسّع في دراسة هذه العلوم وغيرها ، متنقلاً بين حلقات العلم، حتى تأهّل لخلافة أبيه "محمدو بن حنبل" –الذي طار صيته في البلاد– وكان ذلك سبباً في تسميته "ابن حنبل الصغير".

لكن الشيخ عبد الله لم ينتصب للتدريس كأبيه، لأنه كان مولعا بالحل والترحال على ما علله بعض إخوانه ممن عاصروه فكان يرى في انتصابه للتدريس تقييداً لحركته.

اشتهرت القبيلة التي ينتمي إليها الناظم بكتابة الشعر، وبالسليقة العربية الراسخة، وكان الحظ الأوفر من اهتمامها من نصيب اللغة العربية؛ لأنها عندهم بمثابة المفتاح الذي يفتح به أبواب العلوم والفنون.

- **مؤلفاته:**

منها:

- شرح على منظومة وصف النبي ﷺ.

- شرح للمبادئ العشرة.

- شرح على قصيدته في السدل والقبض في الصلاة.

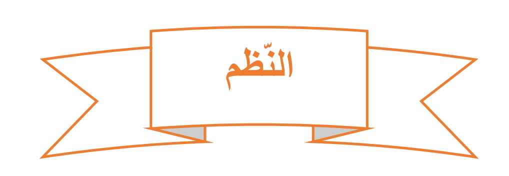
- مجموعة أنظام في مسائل علم الفرائض.

- مؤلف في ترتيب مسائل المنطق.

- مجموعة أنظام في العلوم الشرعية، عرف فيها كل علم على حدة.

- **وفاته:**

توفي الشيخ سنة 1353هـ، ودفن في تنجغماجك، ولم يخلف إلا ولداً واحداً توفي سنة ١٣٦٢هـ، رحمهما الله رحمة واسعة.



1. حَمْدًا لِمَنْ شَرَّفَ رُوحَ الحَقِّ ... بِحُسْنِ خُلْقِهِ وَحُسْنِ الخَلْقِ

2. صَلَّى عَلَيْهِ بَارِئُ البَرَايَا ... مَنْ خَصَّهُ بِأَفْضَلِ المَزَايَا

3. هَذَا وَلَمَّا فَاتَنَا مَرْأى النَّبِي ... وكَانَ أَسْنَى مَطْلَبٍ وَمَرْغَبِ

4. وَكَانَ فِي نُعُوتِهِ البَهِيَّهْ ... مَزِيَّةٌ أَعْظِمْ بِهَا مَزِيَّهْ

5. قَدْ دَوَّنَ الحُفَّاظُ مِنْهَا جُمَلَا ... جَلِيلَةً تَكْسُو الدَّرَارِي خَجَلَا

6. جَمَعْتُهَا كَالجَوْهَرِ المُنَظَّمِ ... بِرَسْمِ خِدْمَةِ الجَنَابِ الأَعْظَمِ

7. فِي رَجَزٍ سَمَّيْتُهُ جُهْدَ المُقِلّْ ... وَصُنْتُهُ عَمَّا يُخِلُّ أَوْ يُمِلّْ

8. فَقُلْتُ نَاقِلًا عَنِ الحُفَّاظِ ... مُحَافِظًا جُهْدِي عَلَى الأَلْفَاظِ

9. قَدْ كَانَ أَحْسَنَ الوَرَى وَأَكْمَلَا ... وَكَانَ أَبْهَى صُورَةً وأَجْمَلَا

10. وَكَانَ فَخْمًا بَادِنًا مُفَخَّمَا ... وَكَانَ ضَرْبَ اللَّحْمِ لا مُطَهَّمَا

11. ولا مُكَلْثَمًا عَظِيمَ الهامَهْ ... رَبْعَةً قَدٍّ في اعْتِدالِ القَامَهْ

12. لا بائِنًا مُشَذَّبًا مُمَّغِطا ... ولا قَصِيرًا مُتَرَدِّدَ الخُطَا

13. وَمَعَ ذَا يَطُولُ مَنْ مَاشَاهُ ... إِذْ لَيْسَ يَعْلُوهُ الوَرَى حَاشَاهُ

14. وكان أَزْهَرَ وكان أَنْوَرَا ... أَبْيَضَ مُشْرَبًا بِلَوْنٍ أَحْمَرَا

15. لَيْسَ بِأَمْهَقَ وَلَا بِآدَمِ ... لِوَجْهِهِ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الجَيْلَمِ

16. وَجْهُهُ كما شِئْتَ مِن استِدارتِهْ ... يَطَّرِدُ الجَمَالُ في أسِرّتِهْ

17. يَجْرِي على خَدَّيْهِ مَاءُ الذَّهَبِ عَـرَقُـهُ كـلُـؤْلُـؤٍ مُـلْـتَـهِـبِ

18. يَقُولُ مَنْ يَنْعَتُهُ فِي الجُمْلَهْ لَـمْ أَرَ قَـبْـلَـهُ وَبَـعْـدُ مِـثْـلَـهْ

19. يَهَـابُـهُ بَـدِيهَـةً مَنْ أَبْصَـــرَهْ يُـحِـبُّـهُ الخَـلِـيـطُ مـهـمـا اخْـتَـبَـرَهْ

20. يُزْرِي بَهَـاءُ وَجْهِـهِ الحُسَّـــانِ بِـالـبَـدْرِ فِـي لَـيْـلَـةٍ اِضْـــحِـيَـانِ

21. بَلْ لَوْ رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الشَّـــمْسَـــا طَـالِـعَـةً فَـطِـبْ بِـذَاكَ نَـفْـسَـــا

22. وَكَانَ رَحْبَ رَاحَةٍ سَـبْطَ العَصَـبْ فِي وَجْهِـهِ عِرْقٌ يُـدِرُّهُ الغَضَـــبْ

23. أَلْيَنَ مِنْ مَسِّ الحَرِيرِ كَفُّـهُ أَطْيَـبَ مِنْ شَـــذَى الغَوَالِي عَرْفُهُ

24. وكـان أَدْعَـجَ وكـان أَنْـجَـلَا أَهْـدَبَ أَبْـلَـجَ أَزَجَّ أَشْـــكَـلَا

25. أَشْـــنَـبَ أَفْلَجَ ضَـــلِيعَ الفَمِّ يَـفْـتَـرُّ عَـنْ كَـالـبَـرَدِ الـمُـنْـهَـمِّ

26. وكـان بَرَّاقَ الثّـنَـايَا مِنْهُمَـا يَـخْـرُجُ كَـالـنُّـورِ إِذَا تَـكَـلّـمَـا

27. ضَـــحِـكُـهُ تَـبَسُّـــمُ وَرُبَّـمَـا أَبْـدَى نَـوَاجِـذَ كَـدُرٍّ نُـظِـمَـا

28. كان جَهِيرَ الصَّـــوْتِ فِيهِ صَـــحَلُ ونُـطْـقُـهُ مُـرَتّـلٌ مُـفَـصَّـــلُ

29. وكَـانَ ذَا عَقِيقَـةٍ إِنْ تَنْفَرِقْ فَـرَقَـهَـا، يَـتْـرُكُـهَـا إِنْ تَـتَّـفِـقْ

30. شَـــعَـرُهُ مُـغْـدَوْدِفُ يُـوَفِّـرُهْ لِشَـــحْمَةِ الأُذْنِ وَطَوْرًا يَضْـــفِرُهْ

31. وكـان رَجْلًا غَيْرَ جَعْدٍ مُفْرِطِ بَـلْ كَـانَ بَـيْـنَ سَـــبَـطٍ وَقَـطَـطِ

32. لَمْ يَبْلُغِ العِشْـرِينَ شَـيْبُ لِحْيَتِهْ وشَـــعْـرِهِ، فَـكَـانَ ذا مِـنْ حِـلْـيَـتِـهْ

33. وكَانَ شَثْنَ قَدَمٍ وَكَفِّ — وَسَائِلَ الأَطْرَافِ أَقْنى الأَنْفِ

34. وَوَاسِعَ الجَبِينِ سَهْلَ الخَدَّيْنْ — شَبْحَ الذِّرَاعَينِ طَوِيلَ الزَّنْدَيْنْ

35. كانَ عَرِيضَ الصَّدْرِ كَثَّ اللِّحْيَةِ — عُنُقُهُ كَمِثْلِ جِيدِ دُمْيَةِ

36. ضَخْمَ الكَرَادِيسِ جَلِيلَ الكَتِدِ — عَبْلَ الذِّرَاعَيْنِ معًا وَالعَضُدِ

37. أَجْرَدَ ذَا مَسْرُبَةٍ رَقِيقَهْ — وعُكْنَةٍ رائِقَةٍ أَنِيقَهْ

38. بِمَنْكِبَيْهِ شَعَرٌ وَبِأَعَا — لِي الصَّدْرِ مِنْهُ وَالذِّرَاعَيْنِ مَعَا

39. وَخَاتَمُ النُّبُوَّةِ اللّذْ كَانَ لَهْ — بِنُغْضِ يُسْرَاهُ كَزِرِّ الحَجَلَهْ

40. أَوْ مِثْلِ جُمْعٍ حَوْلَهُ خِيلانُ — مِثْلُ الثَّآلِيلِ بِهِ تَزْدَانُ

41. كَانَ مَسِيحَ القَدَمَيْنِ، يَنْبُو — عَنْ قَدَمَيْهِ المَاءُ إِذْ يُصَبُّ

42. خُمْصَانَ الاَخْمَصَيْنِ، ذا حُمُوشَهْ — في سَاقِهِ، عَقِبُهُ مَنْهُوشَهْ

43. يُقْبِلُ فِي الْتِفَاتِهِ جَمِيعَا — وَكَانَ هَوْنًا مَشْيُهُ ذَرِيعَا

44. يَزُولُ قَلْعًا إِنْ مَشَى، وَيَخطُو — تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ

45. مِنْ صَبَبٍ، وكَانَ جُلُّ نَظَرِهْ — لَحْظًا، ومِنْ سِيمَاهُ غَضُّ بَصَرِهْ

46. يَقْلِبُ كَفّيْهِ إِذَا هُوَ عَجِبْ — بِها يُشِيرُ، وَيُشِيحُ إِنْ غَضِبْ

47. وَيَسْتَنِيرُ وَجْهُهُ إِذَا يُسَرْ — كَأَنَّهُ فِي الحُسْنِ قِطْعَةُ قَمَرْ

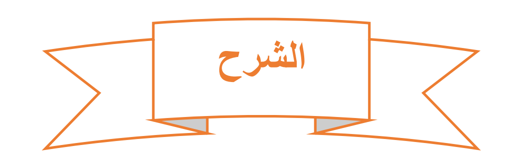
48. وَغَالِبًا يُكْثِرُ مَسَّ لِحْيَتِهْ — عِنْدَ اهْتِمَامِهِ بِأَمْرِ أُمَّتِهْ

49. وَرُبَّمَا بِعُودٍ اوْ بِمِخْصَرَهْ نَكَتَ فِي الأَرْضِ لِهَمٍّ أَضْمَرَهْ

50. وكَانَ يَتَّكي عَلَى وِسَادَهْ عَلَى اليَسَارِ بَعْضُهُمْ قَدْ زَادَهْ

51. ورُبّمَا اسْتَلْقَى ورُبَّمَا احْتَبَى بِمَسْجِدٍ، والقُرْفُصَا كَالِاحْتِبَا

52. يَجْلِسُ حَيْثُ مَجْلِسٌ بِهِ انْتَهَى صَلّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِلا انْتِهَا



حَـمْـدًا لِـمَـنْ شَـــــرَّفَ رُوحَ الـحَـقِّ بِـحُـسْــــنِ خُـلْـقِـهِ وَحُـسْــــنِ الـخَـلْـقِ

(حمدا) مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: "أحمد الله حمدا"، والحمد: الثناء بالجميل مع المحبّة والتعظيم (لمن) اللام للاستحقاق (شرّف) عظّم (روح الحق) من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره عياض في الشفا. وهو معنى "البارقليط"[1]–بالعبرانية– في إنجيل يوحنا.

و(الحق) إما أن يراد به الله تعالى وإضافة الرّوح إليه تشريف، أضافه إليه ليميّز روحه عن سائر المخلوقات بما خصّه الله به من الكمالات، كما سمّي عيسى "روح الله" ؛ أو يراد به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتكون الإضافة للبيان، أي: روح هي الحقّ، لأنه صلّى الله عليه وسلّم قائم بالحقّ كقيام الرّوح بالحيوان، فإن فارقته مات.

(بِحُسْنِ خُلْقِهِ وَحُسْنِ الخَلْقِ) الخُلق –بضمتين أو بضم فسكون– الطبع والسجية، والمراد منه هنا صورة الإنسان الباطنة وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأوصافها.

والخَلْق –بفتح فسكون– في اللغة: التقدير المستقيم الموافق للحكمة، يقال خلق الخيّاط الثّوب إذا قدّره قبل القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون 14]، ويستعمل في الإيجاد وفي المخلوق، والمراد منه هنا صورة الإنسان الظاهرة.

قال الراغب: الخُلُق –بضمتين– يقال في القوى المدرَكَة بالبصيرة كالعلم والحلم؛ والخَلْق –بفتح فسكون– يقال في الهيآت والصّور المدرَكَة بالبصر كالبياض والطول.

صَـــلَّـى عَـلَـيْـهِ بَـارِئُ الـبَـرَايَـا مَـنْ خَـصَّـــهُ بِـأَفْـضَـــلِ الـمَـزَايَـا

(صَلَّى) أثنى (عَلَيْهِ) في الملأ الأعلى (بَارِئُ) خالق، اسْمُ فاعِلٍ مِن بَرَأَ –مَهْمُوزًا– الخلقَ يبرؤهم (البَرَايَا) جمع بريّة وبريئة: الخليقة (مَنْ) بدل من "بارئ" (خَصَّهُ) عن بقية خلقه (بِأَفْضَلِ

---

(1) "البارَقْلِيط" بالباء الموحدة وبفتح الراء –وتكسر– وبسكون القاف. وقد تسكن الراء وتفتح القاف وكسر اللام بعدها ياء مثناة ساكنة فطاء مهملة (البارْقَلِيط)؛ غير منصرف للعجمة والعلمية.

المَزَايَا): جمع مزيَّة مِثْلُ عَطِيَّةٍ وَعَطَايَا ، والْمَزِيَّةُ فَعِيلَةٌ وَهِيَ التَّمَامُ وَالْفَضِيلَةُ، وَلِفُلَانٍ مَزِيَّةٌ أَيْ فَضِيلَةٌ يَمْتَازُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ. قَالُوا وَلَا يُبْنَى مِنْهُ فِعْلٌ. وَهُوَ ذُو مَزِيَّةٍ فِي الْحَسَبِ وَالشَّرَفِ أَيْ ذُو فَضِيلَةٍ. قاله في المصباح المنير.

هَـذَا وَلَـمَّـا فَـاتَـنَـا مَرْأَى الـنَّـبِـي وكَـانَ أَسْــنَـى مَـطْـلَـب وَمَـرْغَـب

(هذا) خبر لمبتدأ محذوف، أي: "الأمر هذا"؛ أو مبتدأ والخبر محذوف، أي: "هذا كما ذكر"؛ اقتضابٌ شبيهٌ بالتخلُّص (ولما فاتنا) اكتحال أعيننا بـ(مرأى) مصدر ميمي، أي رؤية (النبي) صلّى الله عليه وسلّم في حياته (وكان) ذلك (أسنى) أرفع، "أفعل" مِنْ سَنِيَ يَسْنَى سَنَاءً أَيِ ارْتَفَعَ، والسَّناءُ بالمدِّ: الرِّفْعَةُ، وَمِنْه الحديثُ: (بَشِّرْ أُمَّتي بالسَّناءِ) أَي بارْتِفاعِ المِنْزلَةِ والقدْرِ عنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، والسَّنِيُّ: الرَّفِيعُ.

(مطلب) مطلوب (ومرغب) مرغوب؛ من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول.

أخرج الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ".

ودَّ يَوَدُّ: تمنَّى. والباء في (بأهله) باء التفدية، كما في قولهم: "بأبي أنت وأمي".

يعني: يتمنّى أحدهم أن يكون مفتديًا بأهله وماله، لو اتفق رؤيتهم إياي ووصولهم إلي.

وهذا من أعظم علامات محبّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال ابن حجر في الفتح: من علامة الحبّ المذكور أن يعرض على المرء أن لو خُيِّر بين فَقْد غرض من أغراضه، أو فقد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم أَنْ لو كانت ممكنة، فإن كان فقدُها أن لو كانت ممكنة أشدَّ عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة، ومن لا فلا، وليس ذلك محصورًا في الوجود والفقد، بل يأتي مثله في نصرة سنته والذب عن شريعته، وقمع مخالفيها، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. اهـ

وقَالَ القاضي عياض: ومن محبته – صلى الله عليه وسلم – نَصْرُ سنته، والذَّبُّ عن شريعته، وتمنّي حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه.

وفي ترتيب المدارك للقاضي عياض أنّ رجلا سأل أسد بن الفرات رحمه الله تعالى عن حديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (لا يكون الرجل مؤمنًا حتى أكون أحب إليه من ولده وأهله والناس أجمعين)، وقال له: أخاف ألّا أكون كذلك؟ فقال له: أرأيت لو كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين أظهرنا فقُرِّب ليُقتَل، أكنت تفديه بنفسك؟ قال: نعم، قال: وولدك؟ قال: نعم، فقال: لا بأس، فقال له الرجل: فرَّجتها عني فرَّج الله عنك.

وكَـانَ فِـي نُـعُـوتِـهِ الـبَـهِـيَّـهْ مَـزِيَّـةٌ أَعْـظِـمْ بِـهَـا مَـزِيَّـهْ

(وَكَانَ فِي نُعُوتِهِ) صفاته، النّعت: الصّفة (البَهِيَّهْ): البَهِيُّ: الشّيء ذو البَهاء مما يملأُ العينَ رَوْعُه وحُسْنه. والبَهاءُ: الحُسْن، مِنْ بَهُوَ الرجلُ بالضم بهاءً فهو بَهِيٌّ.

(مَزِيَّةٌ أَعْظِمْ بِهَا) ما أعظمها من (مَزِيَّهْ).

قَـدْ دَوَّنَ الـحُـفَّـاظُ مِـنْـهَـا جُـمَـلَا جَـلِـيـلَـةً تَـكْـسُـو الـدَّرَاري خَـجَـلَا

(قَدْ دَوَّنَ الحُفَّاظُ) من محَدّثي الأمة، جمع حافظ؛ قيل: هو من حفظ مائة ألف حديث متنا وإسنادا –ولو بتعدد الطرق والأسانيد–، عالما بأحوال رواتها من تاريخ وفاة وجرح وتعديل. وقيل غير ذلك.

قال سيدي عبد الله العلوي الشنقيطي في "غرة الصباح":

ومَنْ حوى مـائـة ألفِ مُطْلَقَـا عليـه لفظُ حـافظٍ قَـدْ أُطْلِقَـا

(مِنْهَا جُمَلَا) في دواوين السّنّة، بل أفردها بعضهم بالتأليف كما فعل الإمام الترمذي في الشمائل المحمدية والبيهقي وأبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (جَلِيلَةً) عظيمةً (تَكْسُو) تغطّي وتغمر الكواكب (الدَّرَارِي) كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ودِرِّيٌّ: ثاقِبٌ مُضِيءٌ، ومنه في التنزيل (كأَنها كوكب

دُرِّيٌّ)، وفي الحديث: (كما تَرَوْنَ الكوكب الدُّرِّيَّ في أُفُقِ السماء) أَي الشَّدِيدَ الإِنارَةِ. قال الفراء: الكوكب الدُّرِّيُّ عند العرب هو العظيم المقدار.

(خَجَلَا) الخَجَل: التحيُّر والدّهَش من الاستحياء.

جَمَعْتُهَا كَالجَوْهَرِ المُنَظَّمِ بِرَسْمِ خِدْمَةِ الجَنَابِ الأَعْظَمِ

(جَمَعْتُهَا) جواب "لمّا" (كَالجَوْهَرِ) جمع جَوْهَرَة، حَجَرٌ كَرِيمٌ ثَمِينٌ (المُنَظَّمِ) المنظومِ المجموعِ في سِلْكٍ (بِرَسْمِ) رَسْم كل شَيْء: أَثَره، وَالْجمع رُسوم. وترسّمتُ الْموضع، إِذا طلبت رسومَه حَتَّى تقف عَلَيْهَا. وترسّمتُ الأرضَ، إِذا توخّيت موضعا لتحفر فِيهِ (جمهرة اللغة)، ويقال: رَسَمْتُ له كذا فارْتَسَمَه إِذا امتثله. (لسان العرب) (خِدْمَةِ الجَنَابِ الأَعْظَمِ) الْجَنَابُ: النَّاحِيَةُ، وجَنَاب كُلِّ شيء: ناحيته. أصله الجانب، وهو: شِقّ الإنسان. فكأنّ للإنسان شيئا محسوسا يسمّى بالجناب والقدر يحتشم صاحبه لأجله.

والمراد هنا: ذاته صلّى الله عليه وسلم.

فالسّعي في نشر الشّمائل الشّريفة خدمةٌ لجنابه صلّى اللّه عليه وسلّم وثناءٌ عليه وذلك من الواجب المتحتّم.

يقول الشيخ سيلوم:

والبَحْثُ عن صِفاتِهِ مِنْ خِدْمَتِهْ وإِنّها مِنْ واجباتِ أُمَّتِهْ

وقد ذكر القاضي عياض في شرح حديث أم زرع أنّ الثّناء على النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم "فرضٌ لا يتمّ الإسلام إلا به".

قال الشيخ محمد الحسن ولد الخديم:

في بُغْيَةِ الرّائِدِ مِنْ رِياضِ عِلْمٍ سَقَتْهُ السُّحْبُ مِنْ عِياضِ

أنَّ الثّنا على النّبِي فَرْضٌ حُتِمْ لَمْ يَكُ الإِسْلامُ بِدُونِهِ يَتِمْ

ولله درّ ابن زكري القائل في همزيته –التي عارض بها همزية البوصيري–:

وإذا مـا الجنـاب كـان عظيمـا   مـدّ منـه لخادميـه لـواء
وإذا عظّمت سيـادة متبو   ع أجلّ أتباعـه الكبراء

فِي رَجَزٍ سَمَّيْتُهُ جُهْدَ المُقِلّْ   وَصُنْتُهُ عَمَّا يُخِلُّ أَوْ يُمِلّْ

(فِي رَجَزٍ) نظمٍ على بحر الرّجز –وهو "مُسْتَفْعِلُنْ" ستّ مرات– (سَمَّيْتُهُ جُهْدَ المُقِلّْ)

روى أبو داود وأحمد عن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللّهُ عنه أنَّه قال: "يا رسولَ الله، أيُّ الصَّدَقَةِ أفضلُ؟ "قال: جُهْدُ المُقِلِّ".

والجهْدُ –بفتح الجيم وضمّها– : الوُسْعُ والطَّاقةُ، ومنه قوله تعالى (والذين لا يجدون إلا جهدهم) وهو المراد هنا، أو المشَقَّةُ والغايَةُ –بالفتح لا غير–، ومنه حديث الدّعاء: "اللّهم إنّي أعوذ بك من جَهد البلاء ودرك الشّقاء".

والمُقِلُّ: الفقيرُ قَليل المالِ.

والمعنى: أفضل الصّدقة صدقة الفقير بما في وسعه وطاقته.

سمّاه النّاظم بذلك تواضعا منه واعترافا بعجزه عن الوفاء بحقّ الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم مهما أوتي من جودة النّظم.

وبسبب ذلك لم يتعاط كثير من فحول الشّعراء النّظم في مدح النّبيّ صلّى الله عليه إقرارا منهم بالعجز عن استقصاء كمالاته وإحصاء خلاله، وفي هذا يقول ابن جزي الغرناطي:

أَرُومُ امتِداحَ المصطفى فيصُدُّني   قُصُورِيَ عن إدراك تلك المناقِبِ

ومَنْ لي بِحَصْرِ البَحْرِ والبَحْرُ زاخِرٌ   ومَنْ لي بِإحصاءِ الحَصَى والكَواكِبِ

ولَوْ أنَّ كُلَّ العالَمِينَ تألّفُوا   على مَدْحِهِ لَمْ يَبْلُغُوا بعضَ واجبِ

(وَصُنْتُهُ) حاشيته وحفظته (عَمَّا يُخِلُّ) لفرط الإيجاز المؤدّي للتعمية والإلغاز (أَوْ يُمِلّْ) لكثرة الحشو والتّطويل المؤدّيين للسآمة والضّجر.

فَـقُـلْـتُ نَـاقِـلًا عَـنِ الـحُـفَّـاظِ   مُـحَـافِـظًـا جُـهْـدِي عَـلَـى الأَلْـفَـاظِ

(فقُلْتُ نَاقِلًا عَنِ الحُفَّاظِ) إذ مدار باب الشّمائل المحمّدية على النّقل المحض لا على الاستنباط والاجتهاد، إلا ما احتيج له في الجمع بين النصوص والتّوفيق بين الأخبار التي ظاهرها التّعارض، وهي قليلة (مُحَافِظًا جُهْدِي عَلَى الأَلْفَاظِ) الواردة في وَصْفِ مَنْ وَصَفَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم من الصّحابة رضوان الله عليهم كعليّ بن أبي طالب وهند بن أبي هالة وأم معبد وغيرهم، وقد وُفِّقَ الناظمُ في ذلك أيَّما توفيقٍ، رحمه الله وجزاه عنّا خيرا.

تنبيهات:

✓ الأول:

جوّز أئمة الحديث التساهُل في إسنادِ غير الموضوع من الأخبار وروايتِهِ من غيرِ بيانٍ لضَعْفِهِ إذا كانَ في غيرِ الأحكامِ والعقائدِ، بلْ في الترغيبِ والترهيبِ، من المواعظِ والقصصِ، وفضائلِ الأعمالِ، ونحوِها. ومن ذلك أخبار المغازي والسير والشمائل.

أما إذا كانَ في الأحكامِ الشرعيةِ من الحلالِ والحرامِ وغيرِهما، أو في العقائدِ كصفاتِ اللهِ تَعَالَى، وما يجوزُ ويستحيلُ عَلَيْهِ، ونحوِ ذلكَ. فَلَمْ يَرَوا التساهلَ في ذَلِكَ.

وممَّنْ نصَّ عَلَى ذَلِكَ من الأئمةِ عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وعبدُ اللهِ بنُ المباركِ، وَالسُّفْيَانَانِ وغيرُهُمْ. وقدْ عقدَ ابنُ عديٍّ في مقدّمةِ "الكاملِ" والخطيبُ في "الكفايةِ" باباً لذلكَ.

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: "أَحَادِيثُ الْفَضَائِلِ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَنْ يُحْتَجُّ بِهِ".

وَقَالَ الْحَاكِمُ: سَمِعْتُ أَبَا زَكَرِيَّا الْعَنْبَرِيَّ يَقُولُ: "الْخَبَرُ إِذَا وَرَدَ لَمْ يُحَرِّمْ حَلَالًا، وَلَمْ يُحِلَّ حَرَامًا، وَلَمْ يُوجِبْ حُكْمًا، وَكَانَ فِي تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهِيبٍ أُغْمِضَ عَنْهُ، وَتُسُهِّلَ فِي رُوَاتِهِ".

وَلَفْظُ ابْنِ مَهْدِيٍّ فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ: "إِذَا رُوِّينَا عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَحْكَامِ، شَدَّدْنَا فِي الْأَسَانِيدِ وَانْتَقَدْنَا فِي الرِّجَالِ، وَإِذَا رُوِّينَا فِي الْفَضَائِلِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، سَهَّلْنَا فِي الْأَسَانِيدِ وَتَسَامَحْنَا فِي الرِّجَالِ".

وَلَفْظُ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةِ الْمَيْمُونِيِّ عَنْهُ: "الْأَحَادِيثُ الرَّقَائِقُ يَحْتَمِلُ أَنْ يُتَسَاهَلَ فِيهَا حَتَّى يَجِيءَ شَيْءٌ فِيهِ حُكْمٌ".

وَقَالَ فِي رِوَايَةِ عَبَّاسٍ الدُّورِيِّ عَنْهُ: "ابْنُ إِسْحَاقَ رَجُلٌ تُكْتَبُ عَنْهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ -يَعْنِي: الْمَغَازِي وَنَحْوَهَا-، وَإِذَا جَاءَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ أَرَدْنَا قَوْمًا هَكَذَا، وَقَبَضَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ الْأَرْبَعَ".

قال الحافظ العراقي في التبصرة والتذكرة:

وَسَهَّلُوا فِي غَيْرِ مَوْضُوعٍ رَوَوْا ... مِنْ غَيْرِ تَبْيِينٍ لِضَعْفٍ، وَرَأَوْا

بَيَانَهُ فِي الْحُكْمِ وَالْعَقَائِدِ ... عَنِ (ابنِ مَهْدِيٍّ) وَغَيْرِ وَاحِدِ

✓ الثاني:

ذهب بعض العارفين إلى أنّ تَطَلُّبَ الدليل على ما جاء في تعظيم قدر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والبحث عنه معدود في سوء الأدب[1]. والله أعلم

قال العلّامة محمّد الحسن ولد الخديم:

وَكُلُّ مَا مَالَ لتعظيم النَّبِيْ ... بَحْثُ الدَّلِيلِ عَنْهُ سُوءُ أَدَبِ

---

(1) وجهه -والله تعالى أعلم-: أنّ الباحث كأنّه استعظم ما ورد في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم واستكثره عليه ولم يقنع به، فذهب يتطلب صحة ذلك. وكفى بمثل ذلك سوء أدب مع خير الخلق وأكرمهم على ربّه.

✓ الثالث:

قال الأئمّة: يَكْفُرُ مَنْ قال "كان النّبي صلّى الله عليه وسلّم أسود أو غير قرشيّ أو توفيّ أسود" لأنّ وصفه بغير صفته نفي لها وتكذيب بها، ومنه يؤخذ أنّ كلّ صفة عُلِمَ ثبوتها له بالتّواتر كان نفيها كفرا للعلّة المذكورة، وقولُ بعضهم: لا بدّ في الكفر مِنْ أَنْ يصفه بصفة تشعر بنقصه كالأسود، فإن لون السواد لون منقوص، فيه نظر، لأن العلّة كما علمت ليست هي النّقص، بل ما ذكر، فالوجه أنّه لا فرق.

قاله الهيثمي في أشرف الوسائل.

قَـدْ كَـانَ أَحْسَـــنَ الوَرَى وَأَكْمَلَا   وَكَـانَ أَبْـهَـى صُـــورَةً وَأَجْـمَـلَا

(قَدْ كَانَ) رسولنا صلوات ربّي وسلامه عليه، ولم يزل (أَحْسَنَ الوَرَى) المخلوقات (وَأَكْمَلَا)، وهذا محلّ إجماع، كما قال المقّري في "إضاءة الدّجُنّة":

وانْعَقَدَ الإِجْمَاعُ أنّ المصْطفى   أفْضَلُ خَلْقِ اللّهِ والخُلْفُ انْتَفَى

بل قال السّنوسي: ثبوتُ شرفه وأفضليته على جميع المخلوقات يكاد أن يكون معلوما من الدّين بالضّرورة بحيث لا يحتاج إلى سرد دليل.

ولَيْسَ يصِحُّ في الأَذْهَانِ شيءٌ   إذا احتاج النّهارُ إلى دليلِ

وإنّ ممّا يتعيّن على كلّ مكلّف أن يعتقد أنّ كمالات نبيّنا صلى الله عليه وسلم لا تحصى، وأحواله وصفاته لا تستقصى، وأنّ المادحين لجنابه العليّ، والواصفين لكماله الجليّ، لم يصلوا إلى قُلّ من كُلّ، فهم مقصّرون عمّا هنالك، قاصرون عن أداء كلّ ما يتعيّن من ذلك، كيف وآي الكتاب مفصحة عن عُلاه بما يبهر العقول، ومصرّحة من صفاته بما لا يستطاع إليه الوصول.

(وَكَانَ أَبْهَى صُورَةً) خَلْقا (وَأَجْمَلَا)، فلم يجتمع في بدن آدمي من المحاسن الظاهرة الدّالّة على محاسنه الباطنة ما اجتمع في النّبيّ، وسرّ ذلك أن المحاسن الظّاهرة آيات على المحاسن الباطنة والأخلاق الزّكية، ولا أكمل منه صلى الله عليه وسلم ولا مساوي له في هذا المدلول، فكذلك الدّال.

وهذه الألفاظ المذكورة في البيت متقاربة في المعنى، إلا أنّ مقام مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم وسرْدِ خِلاله وتعديدِ خصاله مقامُ إطنابٍ وإسهابٍ.

قال المتنبي:

وَقَد وَجَدتَ مَجالَ القَولِ ذا سَعَةٍ فَإِن وَجَدتَ لِساناً قائِلاً فَقُلِ

روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: (كَانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن النَّاس وَجْها وَأَحْسَنهمْ خَلْقا).

وروى أبو نعيم وغيره عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: (كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أحسن الناس وجها وأنورهم لونا).

(أحسن النّاس وجها) حتّى من يوسف عليه السلام. قال السيوطي: من خصائصه أنّه أوتي كلّ الحسن، ولم يؤت يوسف عليه السلام إلّا شطره.

وروى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: (ما رأيتُ شيئاً أَحْسَنَ منه).

وروى الترمذي وأحمد عن أبي هريرة: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم).

و(شيئا) نكرةٌ في سياق النّفي، فتعمّ كلّ المخلوقات.

وروى البخاري ومسلم والترمذيّ وابن ماجه عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ).

ذكر أنس هَذِه الْأَوْصَاف الثَّلَاثَة مُقْتَصرا عَلَيْهَا وَهِي من جَوَامِع الْكَلم لِأَنَّهَا أُمَّهَات الْأَخْلَاق، قال الحكماء: للإنسان ثلاثُ قُوَى: الغضبيّة والشّهويّة والعقليّة، فكمال القوّةِ الغضبيّةِ الشّجاعةُ، وكمالُ القوّةِ الشّهويّة الجودُ، وكمالُ القُوّةِ العقليّة الحكمةُ، و {الأحسن} إشارة إليه إذ معناه أحسن في الأفعال والأقوال، أو لأنّ حسن الصّورة تابع لاعتدال المزاج وهو مستتبع لصفاء النّفس الذي به جودة القريحة ونحوها. وهذه الثّلاث هي أمّهات الأخلاق.

وقوله (أجود النّاس) أي: بكلّ ما ينفع، فحذف للتّعميم، أو لفوت إحصائه كثرةً.

فائدتان:

✓ الأولى:

كُلُّ فضيلةٍ ليست من خصائص النبيّ صلى الله عليه وشاركه فيها غيره إنّما تذكر في حقّه بصيغة التّفضيل "أفْعَل"، وهو الذي جاء في وصف الصّحابة رضي الله عنهم كما مرّ طرف منه.

ومنه كذلك:

ما روي عن عليّ رضي الله تعالى عنه: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أجود النّاس كفّا، وأوسع النّاس صدرا، وأصدق النّاس لهجة، وأوفاهم ذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلّى الله عليه وسلّم).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعلم النّاس، وأورع النّاس، وأزهد النّاس، وأكرم النّاس، وأعدل النّاس، وأحلم النّاس، وأعفّ النّاس، لم تمسّ يده يد امرأة لا يملك رقّها، أو عصمة نكاحها، أو تكون ذات محرم منه صلّى الله عليه وسلّم.

وكان صلّى الله عليه وسلّم أرأف النّاس بالنّاس، وأنفع النّاس للنّاس، وخير النّاس للنّاس.

وكان صلّى الله عليه وسلّم أصبر النّاس على أقذار النّاس).[1]

قال القاضي محمد بن أحمدو فال التندغي في نظم الشمائل:

كُـلُّ فضـيـلـةٍ لـه بـأفْـعَـلا كـأكْـمَـلٍ وأجْمَـلٍ وأفْضَـلَا
وأعْـلَـمٍ وأحْـلَـمٍ وأَمْـثَـلَا وأَصْـدَقٍ وأرْفَـقٍ وأعْـدَلَا
وأجْـوَدٍ وأمْجَـدٍ وأجْـزَلَا وأكْـرَمٍ وأحْـزَمٍ وأعْـقَـلَا

✓ الثانية:

روى الترمذيّ في الشّمائل عن الْبَرَاءِ بْنَ عَازِبٍ أَنّهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مَرْبُوعًا بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، عَظِيمَ الْجُمَّةِ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ الْيُسْرَى، عَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ).

يعني: (ما رأيتُ شيئا) من المخلوقات (قطُّ أحسن منه)، والجملة استئناف، وهو إجمال بعد تفصيل إشارة لتعذر تفصيل أحوال كماله صلى الله عليه وسلم.

و(رأى):

- يحتمل أن تكون علميّة، فـ"أحسن" مفعول ثان.
- ويحتمل أن تكون بصريّة، فـ"أحسن" صفة قوله "شيئا".

والمراد بنفي رؤية شيء أحسن منه نفي رؤية الأحسن والمساوي معا.

والمعنى أنّه أحسن من كلّ ما وقع بصره عليه أو عَلِمَهُ بدلالة العرف كما يقال "ليس في البلد أفضل من زيد" بمعنى أنّه أفضل من كلّ أحد فيها.

---

(1) وسائل الوصول إلى شمائل الرّسول للنّبهاني ص201-202.

والسّرّ في ذلك أنّ الغالب من حال كلّ اثنين هو التّفاضل دون التّساوي فإذا نفي أفضلية أحدهما ثبت أفضلية الآخر، كذا ذكره المحقّقون. وحاصله: ما رأيتُ شيئا قطُّ كان حسنه مثل حسنه صلّى الله عليه وسلّم بل هو كان أحسن من كلّ حسن.

والحاصل أنّ هذا التركّيب إنّما يدلّ بالمطابقة على نفي الأحسن، وأما نفي المساوي فإنما يستفاد من قرينة المقام إذ هو مقام مدح، ومن هذا الباب قوله تعالى (ومن أصدق من الله قيلا)[1].

وعبّر بـ"قطّ" إشارة إلى أنّه كذلك من المهد إلى اللّحد، لأنّ معنى "قطّ" الزّمن الماضي، ولا يستعمل إلا في النّفي. قاله الباجوري في المواهب اللّدنية.

وَكَـانَ فَـخْـمًـا بَـادِنَـا مُـفَـخَّـمَـا وَكَـانَ ضَـــرْبَ اللَّـحْـمِ لا مُـطَـهَّـمَـا

(وَكَانَ فَخْمًا) بِفَتْح الْفَاء فمعجمة سَاكِنة أفْصح من كسرهَا (مُفَخَّمًا) اسم مفعول من التّفعيل، وهو خبرٌ بعد خبرٍ لـ«كان»، أي: كان عظيما في نفسه، معظّما في الصدور والعيون، لا يستطيع مكابر أن لا يعظّمه، وإن حرص على ترك تعظيمه كَانَ مُخَالفا لما فِي بَاطِنه. ولم يرد بالفخامة فخامة الجسم، وإن كان ضخما في الجملة.

وقيل: فخماً عظيم القدر عند صحبه، مفخّماً معظماً عند من لم يره قط، وهو عظيم أبداً، وَمن ثمَّ كَانَ أَصْحَابه لَا يَجْلِسُونَ عِنْده إِلَّا وهم مطرقون لَا يَتَحَرَّك من أحدهم شَعْرَة وَلَا يضطرب فِيهِ مفصل، كَمَا قيل فِي قوم هَذِه حَالهم مَعَ سلطانهم:

كَـأَنَّمَـا الطّير مِنْـهُـم فَوق هَـامِـهِـمُ لَا خوفَ ظُلْمٍ وَلَكِنْ خَوْفَ إجلالِ

قال القاري في شرح الشّفا: ولا يبعد أن يقال معناهما عظيمٌ عند الحقّ ومُعَظَّم عند الخلق.

(1) انظر جمع الوسائل لملا علي قاري، وفيه ردّ كلام الحافظ ابن حجر في شرح الحديث.

(بَادِنَا) أَي ضخم الْبدن، لَكِن لَا مُطلقًا بل بِالنِّسْبَةِ لما يَأْتِي من كَونه "شثن الْكَفَّيْنِ والقدمين جليل المشاش والكتد".

وَلما كَانَت البدانة قد تكون من كَثْرَة اللَّحْم وإفراط السّمن الْمُوجب لرخاوة الْبدن وعدم استمساكه وَهُوَ مَذْمُوم اتّفاقا، دَفعه هند بن أبي هالة في حديث الترمذي بقوله (بادنا متماسِكا) أي يمسك بعض أَجْزَائِهِ بَعْضًا من غير ترجرج لما اشتمل عليه من الاعتدال التام وبلوغ الغاية في تناسب الأعضاء والتركيب صلى الله عليه وسلم.

قَالَ الْغَزَالِيّ: "لَحْمه متماسك يكَاد يكون على الْخلق الأول وَلم يضرّهُ السن".

أَرَادَ أَنه فِي السن الَّذِي من شَأْنه استرخاء اللَّحْم كَانَ كالشباب.

(وَكَانَ ضَرْبَ اللَّحْمِ) ضَرْبُ اللَّحْمِ: هُوَ الْخَفِيفُ اللَّحْمِ الْمُسْتَدَقُّ. قال الخليل: الضَّرب من الرجال: القليلُ اللَّحْمِ.

فإن قيل: كيف يلائم قوله هنا في رواية الْبَيْهَقِيّ في دلائل النبوة "ضرب اللحم" –وهو ضعيف اللحم المشوق المستدق– ما مرّ في حديث هند "بادناً"؟

قيل: القلّة والكثرة والخفّة والتّوسّط من الأمور النّسبيّة المتفاوتة، فَحَيْثُ قيل: بادن أريد عدم النّحولة والهزال، وَحَيْثُ قيل: ضرب أُرِيد عدم السّمن التَّام.

(لا مُطَهَّمَا) الْمُطَهَّمُ: قيل: هو الفاحش السّمن، وقيل: النّحيف الجسم، فيكون من الأضداد، وقيل: المنتفخ الوجه الذي فيه جهامة أي عبوسة[1]، وقيل: الطُّهمَةُ في اللّون أنّ تتجاوزَ سُمرَتُه إلى السَّواد، ووجهٌ مُطَهَّمٌ إذا كان كذلك.

ولا مانع مِنْ إرادة كُلٍّ مِنْ هذه الأربع هنا.

---

(1) الشيخ سيلوم:

مُطَهّمٌ مُنْتَفِخُ الوَجْهِ مَــعَــا   عُبُوسِهِ لسِمَنٍ قــدْ وَقعا

والوَصْفُ بالسَّمِينِ وصْفٌ بَادِي   وبالنّحيفِ جا مِنَ الأضدادِ

ولا مُكَلْثَمًا عَظِيمَ الهامَهْ   رَبْعَةَ قَدٍّ في اعْتِدالِ القَامَهْ

(ولا مُكَلْثَمًا) اسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ الْكَلْثَمَةِ؛ قيل: هُوَ مجْتمعُ لَحْمِ الْوَجْهِ بِلَا جُهُومَةٍ، وقيل: الْمُدَوَّرُ وَجْهُهُ غَايَةَ التَّدْوِيرِ، ولا يكون إلَّا مع كثرة اللّحم، وقيل: هُوَ مِنَ الْوُجُوهِ الْقَصِير الْحَنَكِ الدَّنِيّ الْجَبْهَةِ الْمُسْتَدِير مَعَ خِفَّةِ اللَّحْمِ.

والحاصل أنّه لم يكن وجهه صلى الله عليه وسلم مفرطا في الاستدارة لأنّها معيبة ودالة على الجهل كما قال الحكيم الترمذي.

وسيأتي الكلام عن صفة استدارة وجهه صلى الله عليه وسلم عند قول الناظم الآتي (وجهٌ كما شِئْتَ مِن استدارته).

(عَظِيمَ) ضخم (الهامَهْ) خبر كان، وليس معطوفا على "مكلثما"؛ و(الهامة) بتخفيف الميم: الرّأس لكلّ ذي روح، وجمعها الهام والهامات.

وفي رواية: (ضخم الرأس)، وفي أخرى: (ضخم الهامة). جاء وصفه بذلك عن علي بن أبي طالب عند أحمد والبيهقي في دلائل النبوة وعن جمع من الصحابة، أي كبير الرأس.

وضخامة الرأس وعظمه ممدوح لأنه أعون على الإدراكات والكمالات، وهو دال على كمال القوة الدماغية من الحواس الباطنة، وبكمالها يتميز الإنسان على غيره، وهو دليل الرزانة والوقار وآية النّجابة.

ثمّ المراد العظم والكبر المعتدل لا الخارج المفرط، فإنه دليل على البلادة، كما أن الصغير جدًّا دليل على الخفة.

(رَبْعَةَ قَدٍّ) القدّ: القامة أو القوام.

والرَّبْعَةُ -بسكون الباء وفتحها- والمربوعُ والرَّبع والمرْتَبع واحدٌ، يقال: رجل رَبْعةٌ، وامرأة رَبْعَةٌ، للذكر والأنثى والواحد والجمع، قيل: التأنيث باعتبار النفس؛ هو الرجلُ وسيط القامة بين الرَّجُلَين.

فسّره أنس في حديث الصحيحين والبراء في حديث مسلم بقولهما رضي الله عنهما: (ليس بالطويل ولا بالقصير).

لكن زاد البيهقي في دلائل النبوة عن عليّ بن أبي طالب (وهو إلى الطول أقرب) لينفي به تَوَهُّم أنه بينهما على السواء أو إلى القصر أقرب.

وفي رواية أبي هريرة عند البيهقي في دلائل النبوة (كَانَ ربعَة إِلَى الطول مَا هُوَ) أَي يمِيل إِلَى الطول قَلِيلا.

وفي حديث هند بن أبي هالة عند الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان (كَانَ أَطْوَلَ مِن اَلْمَرْبُوعِ): أي الحقيقي وهو ما بين الطويل والقصير على حد سواء.

وما جاء أنه كان ربعة مؤول بأنه نوع من المربوعات، أو بأنه كذلك في بادئ النظر وأطول منه عند إمعان النظر، والحاصل أن الأول بحسب الظاهر والثاني بحسب الواقع.

ومَنْ وَصَفَهُ بالرّبعة أراد التقريب لا التحديد، فلا ينافي أنه كان يضرب إلى الطول، فلا تنافي بين الأخبار.

والحاصل أنه كان معتدل القامة، لكن إلى الطول أميل. ولا ريب أنَّ القرب من الطول في القامة أحسن وألطف وأكمل.

(فِي اعْتِدالِ) توسّط (القَامَهْ) الطّول.

لا بـائِـنـًا مُـشَـــذَّبًا مُـمَّـغِـطَـا ولا قَـصِـــيـرًا مُـتَـرَدِّدَ الـخُـطَـا

(لا بائِنًا) روى مسلم عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسِ بالطَّوِيلِ الْبَائِنِ).

والبائن –بالهمز–: المفرط في الطول المتجاوِزِ لحدِّ الاعتدال، وهو اسمُ فاعلٍ مِنْ بان أي ظهر، أو مِنْ بان أي فارق سواه بإفراط طوله. ويدل لهذا قوله في الرواية الأخرى: (ليس بالطويل الذاهب) أي الزائد في الطول.

وفرط الطول مما يذم به الشخص، قَالَ الْأَخْفَشُ: "الْبَائِنُ هُوَ الطَّوِيلُ الَّذِي يَضْطَرِبُ مِنْ طُولِهِ، وَهُوَ عَيْبٌ فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ".

ولا (مُشَذَّبًا) المشَذَّب –اسم مفعول من التشذيب–: هُوَ الْبَائِنُ الطّول ولا عرض له مَعَ نحافة أَي نقص فِي اللَّحْم، من قولهم "نخلة شذباء" أي طويلة شُذّبَ أي قطع عنها جريدها وحرق[1].

والنخلة إذا جردت عن سعفها كانت أفحش في الطول.

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم ليس بنحيف طويل، بل طوله وعرضه متناسبان على أتم صفة، فطوله متناسب ومتناسق مع عرضه.

ولا (مُمَّغِطَا) المُمَّغط –بتشديد الميم الثانية، قيل: والمحدثون يشدّدون الغين[2]–: المتناهي الطول. وأَمْغَطَ النهارُ إذا امتدَّ، وأمغطتُ الحبلَ فامتغط وامَّغَطَ إذا مددته، وأصله "منمغط"

---

(1) الشيخ سيلوم :

قَطْعُ الجَرِيدِ لإطالةِ النَّخيلْ تَشْذِيبُهُ، معنى المُشَذَّبِ الطّويلْ

(2) وعليه هو اسم مفعول من التمغيط، ولا يقدح فيه اشتهار اسم الفاعل، فقد يكون الاشتهار طارئًا.

اسم فاعل من باب الانفعال[1] والنون للمطاوعة[2] فقلبت ميما وأدغمت في الميم، ويقال بكسر العين المهملة بمعناه.[3]

وكل ما يمتد بالمد يطول ويرق، فالمراد نفي الطول البائن وقلة اللحم.

والحاصل أنّ "الممغط" و"المشذب" و"البائن" ألفاظ متقاربة المعنى، والمراد بها نفي الطول المفرط المعيب الخارج عن حد الاعتدال عن النبي صلى الله عليه وسلم.

(ولا قَصِيرًا مُتَرَدِّدَ الخُطَا) القصير المتردِّد: هو المتناهي في القصر، كأنه رُدَّ بعض خلقه على بعض، وانضمّ بعضه إلى بعض، وتداخلت أجزاؤه، فهو المجتمع الخلق الذي يضرب إلى القصر جدا[4].

و(الخُطَا) جمع خطوة، وهي مسافة ما بين القدمين عند المشي.

وَمَـعَ ذَا يَـطُـولُ مَـنْ مَـاشَــــاهُ   إذْ لَـيْـسَ يَـعْـلُـوهُ الـوَرَى حَـاشَــــاهُ

(وَمَعَ ذَا) أي: ومع كونه صلى الله عليه وسلم ينسب إلى الربعة، فهذا إنما هو في حدّ ذاته إذا مشى وحده، وإلا فإنّه كان (يَطُولُ مَنْ مَاشَاهُ) أي إذا ماشى من ليس على طوله غلبه- صلّى الله عليه وسلّم – وزاد عليه في الطّول.

---

(1) من (امَّغَطَ) على وزن (انْفَعَل).

(2) فهو مطاوِع (مَغَّطَه) –بالتضعيف- أي: مَدّه.

(3) الشيخ سيلوم:

مُمَّغِطٌ فـــي الطُّولِ ذو تناهي   مــــا هكذا كان رسولُ اللَّهِ
مِنْ بــاب الاِنفِعالِ وَزْنُهُ جَلِي   كـــــالاِنْمِحاءِ لا مِنَ التَّفَعُّلِ
فَهْوَ اسمُ فاعلٍ أتى مِنِ انْمَغَطْ   مُطاوِعًا مَغَّطَ بالتَّضْعِيفِ قَطْ
ونُونُها بالميمِ لَـــمّـــا أُبْدِلَتْ   في ميمِها التي تَليها أُدْخِلَتْ

(4) الشيخ سيلوم:

ومَنْ تَكُنْ قصيرَةً أعضاؤُهُ   كـــأنّمــــا تداخلَتْ أجزاؤُهُ
فمُتَرَدِّدٌ لِــــــذَاكَ نُفِيا   ذا الوصفُ قَطْعًا عَنْ إمامِ الأَنبِيا

روى ابن عساكر والبيهقي في دلائل النبوة عن عائشة قالت: (لم يكن بالطّويل البائن ولا بالقصير المتردّد، وكان ينسب إلى الرّبعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطّول إلاّ طاله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولربّما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى الرّبعة).

ولعبد الله بن أحمد عن علي بن أبي طالب: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس بالذّاهب طولا وفوق الرّبعة، فإذا جاء مع القوم غَمَرهم) أي: زاد عليهم في الطّول.

وهل بإحداث الله له طولا حقيقة حينئذ؟ ولا مانع منه؛ أو أنّ ذلك يرى في أعين النّاظرين فقط وجسده باق على أصل خلقته على نحو قوله ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ**﴾ [الأنفال: 44]؟ وهذا هو الظّاهر.

وذكر رزين وابن سبع في الخصائص: (كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين)، ودليله قول عليّ المتقدّم: «إذا جاء مع القوم غمرهم» إذ هو شامل للمشي والجلوس.

(إِذْ) تعليلية (لَيْسَ يَعْلُوهُ الوَرَى حَاشَاهُ) تنَزَّه عن ذلك. قيل: ولعلّ السّرّ في ذلك التّنبيه على أنه لا يتطاول عليه أحد صورة كما لا يتطاول عليه معنى.

قال الشّهاب الخفاجي في نسيم الرياض: "ولم يُخْلَقْ صلّى الله عليه وسلم أطولَ من غيره لخروجه عن الاعتدال الأكمل المحمود، ولكن جعل الله له هذا في رأي العين معجزة خصّه الله تعالى بها لئلا يرى تفوّق أحد عليه بحسب الصورة، وليظهر من بين أصحابه تعظيما له بما لم يسمع لغيره، فإذا فارق تلك الحالة زال المحذور وعلم التّعظيم، فظهر كماله الخلقي".اهـ

وكـــان أزهـــر وكـــان أنـــورا أبـيـض مشـــربا بـلـون أحـمـرا
لـــيـــس بـأمــهـــق ولا بـــآدم لـوجهـه ضـــوء كضـــوء الجيـلـم

(وكان أزهر) أَزْهَرُ اللَّوْنِ أي: مشرقه منيره، والزّهرة: البياض النيِّر وهو أحسن الألوان، وزهر النّجوم: بِيضُها، وزَهْرَةُ الدُّنْيَا: غضارتها ونعيمها، كزهرة النّبات وهو حسنه ونواره، وزهرة الجنّة: نضرتها وسرورها. وفي الحديث "اقْرَؤوا الزَّهْرَاوينِ: البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ" يريد النيّرتين.

(وكان أنورا) الأنور: النيِّر الأبيض المشرق، روى البيهقي في دلائل النبوة عن عائشة قالت: (كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أحسن النّاس وجهًا، وأنورهم لونًا) لأنه أبيض مشرب بحمرة.

وفي حديث هند عند الترمذي في الشّمائل أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان (أَنْوَرَ المتَجَرَّدِ).

المتجرّد –بفتح الرّاء على أنه اسم مكان، وكسرها على أنه اسم فاعل– من باب التفعّل: هو ما جُرِّد عنه الثوب من البدن، يقال: فلان حسن الجردة والمجرّد والمتجرّدة، والتجريد التّعرية عن الثّوب، والمتجرّد المعرّى كقولهم "حَسَن العريّة والمعرّى" وهما بمعنى.

والمراد بالأنور النيّر، كما قيل في قوله تعالى: (**وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**) [الروم 27]، أي: هيّنٌ عليه، كما قال ابنُ عَبَّاسٍ والرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالْكَلْبِيُّ. (المحرر الوجيز لابن عطية وتفسير البغوي)

قيل: والمعنى أن عضوه الذي ستره الثوب كان أنور إذا صار مكشوفا، وهو متعقب بالردّ، بل المراد أنّه كَانَ مشرق جَمِيع الْبدن.

(أبيض مشربا بلون أحمرا) هذا بيان لمعنى "أزهر اللون". قال ابن حجر: أزهر اللّون أي أبيض مشرب بحمرة، وقد ورد ذلك صريحا في روايات أخر عند الترمذي والحاكم وغيرهما "كان أبيض مشرباً بياضه بحمرة.اهـ

والإشراب خلط لون بلون كأنّ أحد اللّونين سقى الآخر. يقال بياض مُشْرَبٌ بحمرة بالتّخفيف، فإذا شدّد كان للتّكثير والمبالغة؛ وهو أحسن أنواع الألوان المستحسنة عند الطّباع الموزونة.

(ليس بأمهق) "الأَمْهَق" –بالميم–: الأبيض السّمج الذي لا يشوب بياضه حمرة ولا صفرة ولا سمرة ولا إشراق كبياض المريض.

فهُوَ شَدِيدُ الْبَيَاضِ الَّذِي يَحْكِي لَونه لون الجِصِّ، وَهُوَ كَرِيهُ الْمَنْظَرِ، وَرُبَّمَا تَوَهَّمَهُ النَّاظِرُ أَبْرَصَ.

(ولا بآدم) "الْآدَمُ"–بالمدّ–: الْأَسْمَرُ شديد السمرة، أصله "أَأْدم" بهمزتين على وزن "أفعل" أبدلت الثانية ألفا. والأُدمة السُّمرة.[1]

(لوجهه ضوء كضوء الجيلم) الجَيْلَمُ والجَلَمُ: الْقَمَرُ أو الهِلالُ لَيْلَةَ يُهِلُّ.

روى الترمذي في الشّمائل من حديث هند رضي الله عنه قال (يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ).

(يتلألأ وجهه) أي: يشرق ويضيء كاللّؤلؤ. وأصل تلألأ: ابيضّ فأشبه بياضه اللّؤلؤ.

وسمّي «لؤلؤا» لضوئه.

وقوله (تلألؤ القمر) أي: مثل إشراقه واستنارته (ليلة البدر) وهي ليلة أربع عشرة، ليلة كماله. وإنما سمّي فيها «بدرا» لأنّه يبدر بالطّلوع فيسبق طلوعه مغيب الشمس.

وشبّه تلألؤ الوجه بتلألؤ القمر دون الشّمس لأنّه ظهر في عالم مظلم بظلام الكفر، ونور القمر أنفع من نورها، فنور وجهه أنفع من نور الشمس.

---

(1) قال بعضهم:

آدَمُ أَسْمرُ، وأَمْهَقُ خَلَصْ   بياضُهُ كشِبْهِ جِصٍّ وبَرَصْ

وهذا كما ترى أحسن من الجواب: بأن القمر يتمكّن من النظر إليه، ويؤنس من يشاهده من غير أذى يتولّد عنه، بخلاف الشّمس، فإنها تغشي البصر وتؤذي، على أنّه ورد تشبيهه بالشّمس أيضا كما سيأتي. كذا قال المناوي رحمه الله تعالى.

والتّشبيه بالبدر أبلغ في العرف من التّشبيه بالقمر، لأنّه وقت كماله، كما قال الفاروق- رضي الله عنه- حين رآه أو كلّما رآه:

لو كنتَ مِنْ شـــيء ســـوى بشـــر كـنـتَ المـنـوّر لـيـلـة الـبـدر

وقد صادف هذا التّشبيه تحقيقا، فمن أسمائه -صلّى الله عليه وسلّم-: البدر.

ولهذا أنشدوا لما قدم المدينة:

طـلـع الـبـدر عـلـيـنـا مـن ثـنـيّـات الـوداع

وقد أخرج البخاري عن كعب بن مالك قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سرّ استنار وجهه كأنّه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه) أي الموضع الذى يتبيّن فيه السّرور وهو جبينه.

وقالت عائشة -رضي الله عنها-: (دخل النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يوما مسرورا تبرق أسارير وجهه)، ولذلك قال كعب (كأنّه قطعة قمر).

وفي حديث جبير بن مطعم عند الطّبراني: (التفت إلينا رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- بوجه مثل شقّة القمر)، فهذا محمول على صفته عند الالتفات.

وقد أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها: (كأنّه دارة قمر).

ويسأل عن السرّ في التّقييد بالقطعة مع كثرة ما ورد في كثير من كلام البلغاء من تشبيه الوجه بالقمر بغير تقييد. وقد كان كعبُ بن مالك قائلُ هذا من شعراء الصّحابة، فلابدّ للتّقييد بذلك من حكمة، وما قيل مِنْ أنّ ذلك للاحتراز من السّواد الذي في القمر ليس بقوي، لأنّ

المراد تشبيهه بما في القمر من الضّياء والاستنارة وهو في تمامه لا يكون فيها أقلّ مما في القطعة المجرّدة، فكأنّ التّشبيه وقع على بعض الوجه فناسب أن يشبّه ببعض القمر.

وعن أبي بكر الصّدّيق -رضي الله عنه- قال: (كان وجه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- كدارة القمر)، أخرجه أبو نعيم.

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهمداني عن امرأة من همدان -سمّاها- قالت: (حججت مع النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- مرّات فرأيته على بعير له يطوف بالكعبة بيده محجن عليه بردان أحمران يكاد يمسّ شعره منكبه إذا مرّ بالحجر استلمه بالمحجن ثم يرفعه إلى فمه فيقبّله)، قال أبو إسحاق: (فقلت لها: شبّهيه)، قالت:

(كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله -صلى الله عليه وسلم-).

تنبيه:

تشبيه بعض صفات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنحو القمر والشّمس إنّما جرى على عادة الشّعراء والعرب، أو على سبيل التّقريب والتّمثيل، وإلّا فلا شيء من هذه المحدَثات يعادل شيئا مِنْ أوصافه، إذ هي أعلى وأجلّ مِنْ كلّ مخلوق.

ويرحم اللّه تعالى القائل:

كالبدر والكافُ إنْ أنصَفْتَ زائدةٌ ... فلا تَظُنَّنَّهَا كافا لتشبيهِ

ويرحم اللّه تعالى القائل أيضاً:

يقولون يحكي البدرَ في الحُسْنِ وَجْهُهُ ... وبدْرُ الدُّجَى عن ذلك الحسنِ منحَطُّ

كما شَبَّهُوا غصنَ النَّقا بقوامه ... لقد بالغوا بالمدح للغصن واشْتَطُّوا

فقد حصل للبدر والغصن غاية من الفخر بهذا التّشبيه.

والشّيءُ قد يُشَبَّهُ بما هو أقلُّ منه إذا كان المشبَّه به أبلغ ما يعرفه النّاس، وقد امتدح أبو تمام أحمدَ بن الخليفة المعتصم في قصيدة مطلعها:

ما في وقوفك ساعةً من باس تقضي ذِمامَ الأربُعِ الأدْراس

فلمّا بلغ قوله:

إقدامُ عَمْرٍو في سَماحةِ حَاتِمٍ في حِلمِ أحنَفَ في ذَكاءِ إيَاسِ

قال وزيره يعقوب بن إسحاق الكِندي: (إنّ الأمير فوق ما وصفت، ولم تزد على أَنْ شبّهته بأجلاف العرب، فمن هؤلاء الذين ذكرتهم؟ وما قدرهم؟)

فأطرق أبو تمام قليلاً، فحضره بيتان ارتجلهما، على نفس الوزن والقافية:

لا تنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شرودًا في النّدى والباس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المِشكاة والنّبراس

وجهٌ كما شِئْتَ مِنِ استِدارتِهْ يطَّرِدُ الجَمَالُ في أسِرّتِهْ

سبق عند قول النّاظم (ولا مُكَلْثَمًا) بيان أنّه الْمُدَوَّرُ وَجْهُهُ غَايَةَ التَّدْوِيرِ وأنّ فَرَطَ الاستدارة معيب ودالّ على الجهل، والنبيّ صلى الله عليه وسلم منزّه عن مثل ذلك. ولذلك قال عليّ رضي الله عنه في حديث الترمذي في الشّمائل (وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ وَلَا بِالْمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ تَدْوِيرٌ) أي لم يكن مستديرا كلّ الاستدارة بل كان فيه تدوير قَلِيل كما في رواية أبي عبيد في الغرائب: (وكان في وجهه تدوير قليل). ويكون معناه: في وجهه تدويرٌ ما أو نوعُ تدويرٍ، فالتّنكير هنا إمّا للنّوعية أو التقليل، ويُعَبّر عنه بأنّه كان فيه سهولة وهي أحلى عند العرب، والسّهولة ضدّ الحزونة وهي في الأصل ما غلظ من الأرض.

والحاصل أنه كان بين الاستدارة والإسالة، كذا قاله البيضاوي وأبو عبيد.

فمعنى قوله (وجهٌ كما شِئْتَ مِنِ استِدارتِهْ) أي بِقَدْرِ ما يَستحسنه كلُّ ذي ذوق سليم وطبع قويم من الاستدارة الممدوحة.

لطيفة:

ممّا يعزى لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أو حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

وأجملُ منكَ لم تَرَ قطُّ عيني ... وأحسنُ منك لم تلد النّساءُ
خُلِقْتَ مبرأً مِنْ كُلِّ عيب ... كأنَّك قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

وقال آخر:

فلو صوَّرْتَ نفسك لم تزدها ... على ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

قال العلامة محمد فال (أبّاه) بن عبد الله العلوي الشنقيطي في "نيل السّول إلى شمائل الرسول": "لكن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خلقه الله كما أراد له أن يكون، وذلك أكمل وأشرف وأرفع، والله على كلّ شيء قدير".اهـ

فيمكن أن يقال مثله في قول النّاظم (كما شئت من استدارته). والله أعلم

(يطَّرِدُ) يجري مجرًى واحدا بتتابع وتسلسل (الجَمَالُ) الحُسْن (في أسِرّتِهْ) الخطوط التي في جبهته -صلّى الله عليه وسلّم- مثل التكسّر، واحدها سَرَرٌ وسُرٌّ، والجَمْع أسْرَارٌ، والأسارير جمع الجمع.

قَالَ عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فِي وصف رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وسلم: (كَأَنّ مَاء الذَّهَب يجْرِي فِي صفحة خَدّه وَرَوْنق الجَلاَل يَطَّرِدُ فِي أسِرَّة جَبِينِهِ) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث.

وَفِي بَعْض طُرُق حديث مجزّز في الصحيحين قالت عائشة: (دَخَلَ عَليَّ -صلى الله عليه وسلم- مَسْرُورًا تَبْرُق أسَارِيرُ وَجْهِهِ).

وعَنْها رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهَا قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَكُنْتُ أَغْزِلُ، فَنظَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ جَبِينُهُ يَعْرَقُ وَجَعَلَ عَرَقُهُ يَتَوَقَّدُ نُورًا، فَبُهِتُّ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَقَالَ: مَا لَكِ بُهِتِّ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَظَرْتُ إِلَيْكَ فَجَعَلَ جَبِينُكَ يَعْرَقُ وَجَعَلَ عَرَقُكَ يَتَوَلَّدُ نُورًا فَلَوْ رَآكَ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ لَعَلِمَ أَنَّكَ أَحَقُّ بِشِعْرِهِ قَالَ: وَمَا يَقُولُ يَا عَائِشَةُ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ؟ فَقَالَتْ: يَقُولُ:

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيَلِ

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرَقَتْ كَبَرْقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قَالَتْ: فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ وَقَامَ إِلَيَّ فَقَبَّلَ مَا بَيْنَ عَيْنَيَّ وَقَالَ: جَزَاكِ اللهُ يَا عَائِشَةُ خَيْرًا مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ).

أخرجه ابن عساكر في تاريخه، وأبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، والبيهقي في السنن.

قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة.

يَجْرِي على خَدَّيْهِ مَاءُ الذَّهَبِ ... عَرَقُهُ كلُؤْلُؤٍ مُلْتَهِبِ

(يَجْرِي على خَدَّيْهِ) الخدّ: جانب الوجه (مَاءُ الذَّهَبِ).

سبق في قول عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فِي وصف رَسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم: (كَأَنّ مَاء الذّهَب يجْرِي فِي صفحة خَدّه وَرَوْنق الجَلَال يَطَّرِدُ فِي أسِرَّة جَبِينِهِ)، ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث.

أي: كأنّ ماء الذهب يسيل على صفحَتَيْ خدّه صلّى الله عليه وسلّم من حسن وجهه وجماله واستنارته وضيائه.

(عَرَقُهُ) العَرَق: مَا يترشّح من جلد الْإِنْسَان (كلُؤْلُؤٍ) –بِهَمْزِ أَوَّلِهِ وَآخِرِه، وَبِتَرْكِهِمَا وَبِهَمْزِ الْأَوَّلِ دُونَ الثَّانِي، وَعَكْسه– جمع لؤلؤة: ما يوجد في الأصداف من الدُّرّ.

روى مسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤ) أَيْ في الصَّفَاءِ وَالْبَيَاضِ والضِّياء.

يعني: كان عَرَقُهُ –صلّى الله عليه وسلّم– صافيًا في غاية الصّفاء.

وأخرج الطبراني في الكبير عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدَّر –أي: سال– جبينه عرقا كأنّه جُمَانٌ –أي: لؤلؤ– وإن كان في البَرْد).

وورد في حديث الإفك عند البخاري من حديث عائشة: (حَتَّى أنزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ)، والجمان: حبّات اللؤلؤ.

(مُلْتَهِبِ) أي يلمع لمعانا شديدا كاللّهب.

وفي خبر عَائِشَة الذي تقدّم: (كَانَ يخصف نَعله وَكنت أغزل فَنَظَرت إِلَيْهِ فَجعل جَبينه يعرق وَجعل عرقه يتَوَلَّد نورا).

يَـقُـولُ مَـنْ يَـنْـعَـتُـهُ فِـي الـجُـمْـلَـهْ لَـمْ أَرَ قَـبْـلَـهُ وَبَـعْـدُ مِـثْـلَـهْ

(يَقُولُ مَنْ يَنْعَتُهُ) النَّعْتُ: وصفُ الشيءِ بما فيه من حُسْنٍ. قال الخليل: ولا يقال في المذموم إلّا أنْ يتكلَّف مُتَكلِّفٌ فيقول: نَعْتُ سُوءٍ، وأمّا الوصف فيقال فيهما، يعني في المحمود والمذموم، فكلّ نعتٍ وصفٌ، وليس كلّ وصفٍ نَعْتًا (فِي الجُمْلَهْ) أي إجمالا، عند العجز عن وصفه وبيان جماله وكماله تفصيلا (لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَبَعْدُ مِثْلَهْ) يشير إلى ما رواه التّرمذي في الشّمائل عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (يَقُولُ نَاعِتُهُ لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ). وقد ورد

هذا اللّفظ في وصف جمع من الصّحابة للنّبي صلّى الله عليه وسلّم منهم أبو بكر الصّدّيق وعليّ بن أبي طالب وأبو هريرة رضي الله عنهم.

و"أَرَى" هنا يحتمل أن تكون بصرية، والمراد: لم أَرَ قَبْلَ موته صلى الله عليه وسلم –لأن عليّا لم يدرك زمانا قبل وجوده– ولا بعد موته مثله. ويكون كناية عن عدم رؤية المماثلة له مطلقا مع قطع النّظر عن القبليّة والبعديّة.

ويحتمل أن تكون عِلْمية، أي لم أعلم مماثلا له في وصف من أوصاف الكمال، كيف وهو سيد النبيّين وأشرف المرسلين وخيرة الله من خلقه أجمعين.

ونفيُ المثلِ يدُلُّ عرفا على كونه أحسن مِنْ كلِّ أحد، كما يقال في: "ليس في البلد مثلُ زيدٍ"، والسّرّ فيه أنه إذا نُفِيَ المِثْلُ الذي هو أقرب إليه من الأحسن في مقام ذكر المحاسن كان نفي الأحسن بالأولى والأحرى لأنّه إن وجد كان مثلًا وزيادة.

فهذه فذلكة[1] مشتملة على إظهار العجز عن غاية وصفه ونهاية نعته.

قال جسّوس في شرح الشّمائل: "فهذا عليّ رضي الله عنه وهو مَنْ هو في العلم والمعرفة والذي ورد فيه: "أنا مدينة العلم وعليّ بابها" بعد أن عدّد بعض البعض من صفات جماله ونعوت كماله ﷺ، اعترف بالعجز عن استقصاء محاسن هذا الجناب الأرفع، ورجع إلى القصور عن إدراك كمالات هذا الشفيع المشفّع، إشارة إلى أن الجناب المذكور في غاية العلو ونهاية الارتفاع فمن طاوله ورام استقصاء كمالاته عجز وانقطع".اهـ

ولله در البوصيري إذ يقول:

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غَيْرُ مُنْقَسِمِ

(1) الفَذْلَكة معناها باختصار: إجمالُ المعنى في عِبارةٍ موجَزةٍ بعد بسطه في عبارةٍ طويلةٍ.

تنبيه:

اعلم أنّ المنفيّ في كلام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عموم الشّبه، لا أصلُه أو معظمُه أو نوعٌ منه، فلا ينافي ما ذكره العلماء مِنْ عدّ الذين كانوا يشبهونه صلّى الله عليه وسلم.

قال العلامة محمّد الطّاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى رحمة واسعة:

"وأمّا الذين يشبهون رسول الله من أمته فتسعة عشر أو عشرون وهم: ابنته فاطمة وابنه إبراهيم وجعفر بن أبي طالب – وقال له رسول الله: (أشبهت خلقي وخلقي)–، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب أخو رسول الله من الرضاعة، وعثمان بن عفان، وقثم بن العباس، والحسن بن علي يشبه رسول الله في نصفه الأعلى، كان أبو بكر يلاطفه وهو صغير يقول له: (بأبي شبيةٌ بالنبي، ليس شبيةٌ بعلي)[1]، والحسين يشبهه في نصفه الأسفل، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعون بن جعفر بن أبي طالب، ومحمد بن عقيل بن أبي طالب، ومسلم بن عقيل بن أبي طالب، وعبدالله ابن الحارث بن نوفل الملقب بَبَّة، ومسلم بن معتب ابن أبي لهب، وعجير بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وكابس بن ربيعة، والسائب بن عبيد، وعبدالله بن عامر بن كريز العبشمي، وعبدالله بن أبي طلحة الخولاني، وكان كفّ عليّ بن أبي طالب يُشَبّه بكفّ رسول الله .

فهؤلاء الذين بلغ بهم استقرائي لمن ذكر أنه يشبه رسول الله ﷺ، وأن مشابهتهم إياه متفاوتة، وكلها لا تبلغ تمام شبهه".اهـ[2]

---

(1) قال ابن مالك في "شرح التسهيل": كذا ثبت في صحيح البخاري برفع (شبيه) بناء على أن (ليس) حرف عطف كما يقول الكوفيون. ويجوز أن يكون (شبيه) اسم (ليس) وخبرها ضمير متصل حذف استغناء عن لفظه بنيته.

وقال الكرماني: قوله: (بأبي)، أي: هو مفدى بأبي، أو هو قسم، وتقديره: لهو.

وقال الطيبي: يحتمل أن يكون التقدير: هو مفدى بأبي شبيه، فيكون خبرًا بعد خبر، أو أفديه بأبي، فعلى هذا (شبيه) خبر مبتدأ محذوف.

انظر: إرشاد الساري القسطلاني 134/6؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح 3794/9؛ عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد السيوطي 2/ 274.

(2) الشمائل المحمدية، المجلة الزيتونية، المجلد 1، العدد 9، ربيع الأنور 1365/ مايو 1937 ص 452-456.

قال في المواهب: وعدّهم بعضهم سبعا وعشرين نفسا.

يَـهَـابُـهُ بَـدِيـهَـةً مَـنْ أَبْصَـــرَهْ يُـحِـبُّـهُ الـخَـلِـيـطُ مـهـمـا اخْـتَـبَـرَهْ

(يَهَابُهُ) هاب الشيء يَهَابُه إذا خافه ووَقَّره وعظّمَه (بَدِيهَةً) أي فجأة وبغتة، والبَدِيهة: المفاجأة، يقال: بَدَهْتُه بأمر: إذا فاجَأْته (مَنْ أَبْصَرَهْ) أوّل وهلة، (يُحِبُّهُ الخَلِيطُ) المعاشر، والمخالطة المعاشرة (مهما) كلّما (اخْتَبَرَهْ) جرّبه وعرفه.

يشير لحديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عند التّرمذي في الشّمائل في وصف النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفيه: (أَجْوَد النَّاسِ صَدْرًا، وَأَصْدَق النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنهُمْ عَرِيكَةً، وَأَكْرَمهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ).

قوله (وألينهم عريكة) "ألين" من اللّين، وهو ضدّ الصّلابة. و"العريكة": الطّبيعة، وزنا ومعنى، يقال: فلان ليّن العريكة إذا كان سلسا ومطاوعا منقادا قليل الخلاف، ومعنى لِينِها: انقيادُها للخلق في الحقّ. فكان معهم على غاية من التواضع وقلّة الخلاف والنّفور. وهذه الجملة منبئة عن كمال مساحته صلّى الله عليه وسلم ووفور حلمه، ما لم تنتهك حرمات الله تعالى.

وقوله (وأكرمهم عشرة) -بالكسر- اسم من المعاشرة، وهي المخالطة و الصّحبة، والعشير: الصاحب.

فمعاشرته صلّى الله عليه وسلم ومخالطته أكرم من جميع مخالطة الناس كما يدلّ عليه قوله: (من رآه بديهة) أي: رؤية بديهة، فهو مفعول مطلق، يعني فجأة من غير سابقة مخالطة ومعرفة أحواله، أو قبل النّظر في أخلاقه العليّة وأحواله السّنيّة (هابه) أي: خافه لما فيه من صفة الجلال الربّانيّة، ولما عليه من الهيبة الإلهية والفيوضات السّماوية.

قال ابن القيّم: (والفرق بين المهابة والكبر: أنّ المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الربّ ومحبّته وإجلاله، فإذا امتلأ القلب بذلك حلّ فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة؛ فكلامه نور، وعلمه نور، إن سكت علاه الوقار، وإن نطق أخذ بالقلوب والأبصار.

وأما الكبر فإنّه أثر من آثار امتلاء القلب بالجهل والظلم والعجب، فإذا امتلأ القلب بذلك ترحّلت عنه العبودية، وتنزّلت عليه الظلمات الغضبية، فمشيته بينهم تبختر، ومعاملته لهم تكبّر، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن ردّ عليه يريه أنّه بالغ في الإنعام، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه. وقد حمى الله حبيبه من هذه الأخلاق).اهـ

روى ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: (أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ).

"ترعد" أرعَدَ الرَّجُلُ أخَذَتْهُ الرِّعدة، والرِّعدة الاضطراب. و"الفرائص" جمع فَرِيصة، وهي لَحْمة بين الكتف والصّدر ترتعد عن الفزع، والكلام كناية عن الفزع.

ومعنى "هوّن عليك" أي: خفّف عن نفسك هذا الخوف وأزله منك، ولا تجزع منّي "فإنّي لست بملك" أي: متصوّر بصورة ملوك الأرض يهاب منهم "إنّما أنا ابن امرأة تأكل القديد" أي: اللّحم اليابس المملّح المجفّف في الشّمس، "فعيل" بمعنى "مفعول"، وكانت قريش تقدّد اللّحم وترفعه لوقت الحاجة.

فسكّن عليه الصلاة والسلام روعه شفقة، لأنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وسلب عن نفسه الملكية بقوله: "فإنّي لست بملك" لما يلزمها من الجبروتية، وقال: "أنا ابن امرأة" فنسب نفسه إليها، ولم يقل «رجل» زيادة في شدّة التواضع وتسكين الرّوع، لما علم من ضعف النّساء، ووصفها بأنّها تأكل القديد تواضعا، لأنّ القديد مفضول، وهو مأكول المتمسكنة، وكأنّه قال: "أنا ابن امرأة مسكينة تأكل مفضول الأكل فكيف تخاف منّي؟!".

وقوله (ومن خالطه) أي: عاشره وصاحبه (معرفة) أي: مخالطة معرفة، أو لأجل المعرفة (أحبّه) حبّا شديدا حتى يصير أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين، لظهور ما يوجب الحبّ من كمال حسن خلقه ومزيد شفقته.

وخرج بقوله: «معرفة» من خالطه تكبّرا، كالمنافقين، فلا يحبّه.

يُـزْرِي بَـهَـاءُ وَجْـهِـهِ الـحُسَّـــانِ   بِـالـبَـدْرِ فِـي لَـيْـلَـةِ اِضْـــحِـيَـانِ

(يُزْرِي) أَزْرَى بالأَمْرِ يزري إزراء: تَهَاوَنَ بِهِ وقَصَّرَ بِهِ، وَالْإِزْرَاءُ التَّهَاوُنُ بِالشَّيْءِ.

(بَهَاءُ) حُسْن (وَجْهِهِ الحُسَّانِ) صفة لـ"وجهه"، والحُسّان: أَحْسَنُ من الحَسَنِ، وَالْجَمْعُ حُسّانونَ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: وَلَا يُكسَّر، استغْنَوْا عَنْهُ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، والأنثى حُسَّانَةٌ. "فُعَّال" مِنَ الحُسْن للمبالغة. وأَصل قَوْلِهِمْ شَيْءٌ حَسَن: حَسِين لأَنه مِنْ حَسُن يَحْسُن، كَمَا قَالُوا عَظُم فَهُوَ عَظِيم، وكَرُم فَهُوَ كَرِيمٌ، كَذَلِكَ حَسُن فَهُوَ حَسِين، إِلَّا أَنه جَاءَ نَادِرًا، ثُمَّ قُلِبَ الفَعِيل فُعَالًا ثُمَّ فُعّالًا إِذَا بُولِغَ فِي نَعْته، فَقَالُوا حَسَنٌ وحُسَان وحُسّان، وَكَذَلِكَ كَرِيمٌ وكُرام وكُرّام، وكَبير وكُبَار وكُبَّار، وعَجيب وعُجاب وعُجَّاب، وَظَرِيفٍ وظُراف وظُرَّاف (بِالبَدْرِ) متعلق بـ"يزري"، القمر ليلة تمامه وكماله (فِي لَيْلَةٍ اِضْحِيَانِ) بهمز الوصل للوزن، وإلّا فهمزها همز قطع. يقال: ليلة إِضْحِيَان وإضحيانة وضَحيانَة وضَحيَاء أيضًا وَيَوم ضَحيَان، من الضّحو وهو البروز والظّهور، أي مُضيئة مُقْمِرة من أوّلها إلى آخرها، لا ظلمة فيها ولا غيم.

قال العلامة محمد بن أحمدو فال التندغي في نظم الشّمائل:

وَرِيءَ فِي لَـيْـلَـةٍ اِضْـــحِـيَـانِ	أحْسَـــنَ مِـنْ قَـمَـرِهَـا الحُسَّـــانِ
لـيـلـةٌ اضْـــحِـيَـةٌ اضْـــحِـيَـانَـهْ	بـكَـسْــرِ هَمْزٍ بِـالـضِّـيَـا مُـزْدَانَـهْ
وإضْـــحِـيـانُ يَـوْمُـهَـا وَوَرَدَا	لِـلَـيْـلَـةٍ مِـنْ تَـائِـهِ مُجَـرَّدَا

والنّاظم يشير إلى حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه عند الترمذي في الشمائل قَالَ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى القَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ).

(فلهو عندي) أي: في نظري أو معتقدي، وهو لبيان الواقع لا للتّخصيص والاحتراز عن غيره، فإنه أحسن من القمر في عيني كلّ من رآه، (أحسن من القمر) وذلك لأنّ نوره ﷺ ظاهر في الآفاق والأنفس مع زيادة الكمالات الصّورية والمعنوية، فنور وجهه ﷺ ذاتيّ لا ينفكّ عنه ساعة في الليالي والأيّام، ونور القمر مكتسب مستعار ينقص تارة ويخسف أخرى.

بَـلْ لَـوْ رَأَيْـتَـهُ رَأَيْـتَ الشَّـــمْسَـــا طَـالِـعَـةً فَـطِـبْ بِـذَاكَ نَـفْـسَـــا

(بَلْ لَوْ رَأَيْتَهُ) صلّى الله عليه وسلّم (رَأَيْتَ الشَّمْسَا طَالِعَةً) أي لرأيت شمساً طالعة، جَرَّدَ[1] مِنْ نفسه الزكية الطّاهرة شمساً وهي هو، ونحوه قولك: "لَئِنْ لَقِيتَهُ لَيَلْقَيَنَّكَ مِنْهُ الأَسَدُ" و"إذا نظرْتَ إليه لم تَرَ إلّا أسداً". أي: فكأنّك رأيت الشّمس طالعة.

روى الدارمي، والطبراني في الأوسط والكبير، والبيهقي في شعب الإيمان ودلائل النبوة، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: (قُلْتُ لِلرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ ابْنِ عَفْرَاءَ: صِفِي لَنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، لَوْ رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الشَّمْسَ طَالِعَةً).

وروى التّرمذي في الشّمائل عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ).

---

(1) التجريدُ –عند البلاغيين–: هوَ أنْ يُنتزَعَ منْ أمْرٍ ذي صفةٍ أمْرٌ آخرُ مثلُه فيها؛ مبالَغةً لكمالِها فيهِ، ويكونُ بمِنْ، نحوُ: لي مِنْ فلانٍ صديقٌ حميمٌ. أوْ في، كما في قولِه تعالى: {لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ}. أَو الباءِ، نحوَ: لَئِنْ سألْتَ فلانًا لتَسْأَلَنَّ بهِ البحرَ. أوْ بمخاطَبَةِ الإنسانِ نفسَهُ، كقولِه:

لا خيلَ عندَك تُهديها ولا مالُ فليَسْعَدِ النطْقُ إنْ لم تَسْعَدِ الحالُ

أوْ بغيرِ ذلكَ، كقولِه:

فَلَئِنْ بَقِيتُ لأرْحَلَنَّ لغزوةٍ تَحْوِي الغنائمَ أوْ يموتَ كريمُ

شَبّه جريَان الشّمس في فلكها كما قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: 38]، بجريان الحسن في وَجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه عكس التّشبيه للمبَالغة[1]، ويحتمل أن يكون من بَاب تناهي التّشبيه[2]، جعل وَجهه مقرًّا ومكَانًا للشّمس تجري فيه[3].

وإنما خصّ الوجه بذلك، لأنه الذي تظهر به المحاسن، ولأنّ حسن البدن تابع لحسنه غالبا.

(فَطِبْ) انْشَرِحْ أيها المحِبّ (بِ) سبب (ذَاكَ) الحُسْن والجمال (نَفْسَا) منصوب على التمييز.

يقال: "طابت نفس فلان" أي: انشرحت.

وَكَانَ رَحْبَ رَاحَةٍ سَبْطَ العَصَبْ   في وَجْهِهِ عِرْقٌ يُدِرُّهُ الغَضَبْ

(وَكَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (رَحْبَ) -الرّواية بفتح الراء، ويجوز الضّمّ في اللّغة-: واسع (رَاحَةٍ) الرّاحة: بطن الكفّ مع بطون الأصابع، وأصلها من الرَّوْح وهو الاتساع. وكانت العرب تحمد ذلك وتمدح به.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيّ: ورحب الرَّاحَة أَي الْكَفّ، دَلِيل الْجُود وصغرها دَلِيل الْبُخْل.

والعرب تقول للبخيل: "هو جعد الكفّ"، وفي ضدّه: "سبط الكفّ".

فالمراد سعة الكفّ حسّا ومعنًى -سخاء وعطاء وكرما-، وَمن قصره على حَقِيقَة التَّرْكِيب أَو جعله كِنَايَة عَن الْجُود فَحسب فَغير مُصِيب، إذ لا منع من الجمع بين العبارة والإشارة.

ولله درّ حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث قال:

---

(1) وهو تشبيه حالة بحالة، وهو أن شدة النور وسريانه في وجه الناظر إليه منزَّل منزلة الشمس التي ظهر نورها في وجهه، فشبَّه ظهور النور في وجهه بظهور الشمس في وجهه، لكنَّه عكس التشبيه، فجعل نور الشمس هو المشبّه، وجعل وجهه مقرًّا لظهور نوره.

(2) أي: من التشبيه الذي بلغ النهاية.

(3) هذا بيان لجهة التناهي، أي: إنه جعل ما حقه أن يكون مشبهًا مشبهًا به؛ إذ جريان الشمس في فلكها أمر ظاهر، وجريان الحسن في الوجه الوجيه، وإن كان أعظم، إلّا أن التشبيه به ليس متعارفًا، فجعله مشبهًا به مبالغة في التشبيه، كما يقال الأصل: زيد كأسد، وأبلغ منه: زيد أسد، وأبلغ منه: الأسد كزيد.

لَـهُ رَاحَـةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَـــــارُ[1] جُودِهَـا عَلَى الْبَرِّ كَـانَ الْبَرُّ أَنْـدَى مِنَ الْبَحْرِ

لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُـنْـتَـهـى لِـكِـبَـارِهَـا وَهِمَّـتُـهُ الصُّـــغْرَى أَجَـلُّ مِـنَ الـدَّهْرِ

(سَبْطَ) السّبط –بسكون الباء وكسرها[2]–: المتدّ الذي ليس فيه تعقّد ولا نتوء، والسّبوطُ الامتداد.

(العَصَبْ) العَصَب: مفرد الأعصاب، وهي أطناب المفاصل التي تُلائِمُ بينها وتشُدُّها.

وفي رواية لحديث هند: "الْقَصَب" –بِالْقَافِ–: جمع قَصَبَة، كلّ عظم أجوف فِيهِ مخّ، والمراد عظام ساعديه وساقيه باعتبار طولهما.

قال الهروي: كُلّ عظمٍ عريضٍ لوحٌ، وكُلّ أجوفَ فيه مُخٌّ قَصَب.

أي لَيْسَ فِي ذِرَاعَيْهِ وساقيه وفخذيه نتوء وَلَا تعقّد.

(فِي وَجْهِهِ) بين حاجبيه (عِرْقٌ) –بكسر العين–: أجوف يكون فيه الدّم، والعصب غير أجوف (يُدِرُّهُ) من الإدرار، يقال: درّ الضّرع إذا امتلأ لَبَنًا، أي يجعله ممتلئا، ومن المجاز: "درّت العروق": امتلأت، (الغَضَبْ) يعني أنه كان بين حاجبيه عرق يمتلئ دما إذا غضب كما يمتلئ الضرع لبنا إذا در فيظهر ويرتفع. وفي ذلك دليل على كمال قوّته الغضبية التي عليها مدار حماية الدّيار وقمع الأشرار.

أَلْـيَـن مِـنْ مَـسِّ الـحَـرِيـرِ كَـفُّـهُ أَطْيَـب مِنْ شَـــذَى الغَوَالِي عَرْفُهُ

(أَلْيَن) أنعم (مِنْ مَسِّ) مَلْمَس (الحَرِيرِ كَفُّهُ) صلّى الله عليه وسلّم، و (أَطْيَب مِنْ شَذَى) الشَّذَى: قُوَّةُ ذَكاءِ الرَّائحةِ (الغَوَالِي) جمع غالية، والغَالِيَة: طِيبٌ مَجْمُوعٌ مِنَ المِسْكِ وَالْكَافُورِ وَالْعَنْبَرِ، يُخْلَطُ بِمَاءِ الْوَرْدِ، ثُمَّ يُسَكُّ عَلَى حَجَرٍ، فَيُطَيَّبُ بِهِ. يُقَالُ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمَّاهُ بِذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، يُقَالُ مِنْهُ: تَغَلَّيْتُ بِالْغَالِيَةِ. وَيُقَالُ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ أَهْدَى

---

(1) (أُنَّ) بضم الهمزة: بمعنى صُبَّ، نائبه (معشارُ).

(2) وقال ابن القطاع: الجسم "سَبْط" بسكون الباء، والشّعر "سَبِط"بكسرها.

لِمُعَاوِيَةَ قَارُورَةً مِنَ الْغَالِيَةِ، فَسَأَلَهُ: كَمْ أنْفَقَ عَلَيْهَا، فَذَكَرَ مَالًا، فَقَالَ: هَذِهِ غَالِيَةٌ، فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ (عَرْفُهُ) العَرْفُ: الرّيح الطَّيِّبَةُ، يقال "إنّ فلانًا لَطَيِّبُ العَرْفِ"، ومنه قَوْلُهُ تعالى: (**عَرَّفَهَا لَهُمْ**) [محمد: 6] أي: طَيَّبَهَا لَهُمْ.

في الصّحيحين عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلاَ دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ شَمِمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرْفًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ أَوْ عَرْفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

"الدّيباج" -فارسي معرّب-: الرّقيق من الحرير، فعَطْفُهُ على الحرير من عطف الخاص على العام.

وروى مسلم أنّه صلّى الله عليه وسلّم مسح خَدَّ جابر بن سمرة، قال: (فَوَجَدْتُ ليده بردا وريحا كأنّما أخرجها من جُؤْنة عَطّار)، وهو الوعاء الذي يحفظ فيه العطّارُ الطّيب.

وكان أَدْعَجَ وكان أَنْجَلَا أَهْدَبَ أَبْلَجَ أَزَجَّ أَشْكَلَا

(وكان) صلّى الله عليه وسلّم (أَدْعَجَ) الْعَيْنَيْنِ، أي: شديدَ سوادِ حدقتهما مع سعةِ العين وشدّة بياضها. فالدَّعَج والدُّعْجَة: شدّة بياضِ البياضِ وسوادِ السّوادِ مع السّعة. والعين دَعْجاء.

قالت أمّ معبد في وصفه صلّى الله عليه وسلّم: (فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ)[1].

وروى البيهقيّ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عظيم العينين)، وفي رواية: (كان أسود الحدقة).

(وكان) صلى الله عليه وسلم (أَنْجَلَا) الألف لإطلاق القافية، أي ذا نَجَل، وهو سَعَةُ شِقِّ العين مع حسنها، والرّجلُ أَنْجَلُ، والعينُ نجلاء.

ذكره عياض في الشفا.

(1) حديث أم معبد المشهور رواه البغوي، وابن شاهين، وابن السّكن، والطبرانيّ، وابن منده، والبيهقيّ وغيرهم.

وكان صلّى الله عليه وسلّم (أَهْدَبَ) الأَشْفَار، جمع شفر –بِضمّ أوّله وفتحه-: حُرُوف الأجفان الَّتِي ينْبت عَلَيْهَا الشّعْر[1]، وَهِي الهُدب بِالضَّمِّ، والأهدب كَثِيره، وَيُقَال لطويله أَيْضا، وحرف كلّ شيء شفره وشفيره.

وَمَا أوهم ظَاهرُ هَذَا التَّرْكِيب مِنْ أَنّ الأشفار هِيَ الْأَهْدَاب غير مُرَاد، فَفِي الْمِصْبَاح عَن ابْن قُتَيْبَة: الْعَامَّة تجْعَل أشفار الْعين الشّعْر وَهُوَ غلط وإنّما الأشفار حروف العين التي ينبت عليها الشّعر. وَفِي الْمغرب: لم يذكر أحد من الثِّقَات أَنّ الأشفار الْأَهْدَاب، فَهُوَ إِمَّا على حذف مُضَاف أَي الطَّوِيل شعر الأجفان، ويحتمل أنه سمّى النَّابِت باسم المنبت للملابسة.

فالمعنى المراد: كثير شعر حروف أجفان عينيه.

وكان صلى الله عليه وسلم (أَبْلَجَ) أي مُشْرِقَ الوجه مُضِيئَهُ مُسْفِرَهُ، ومنه تبلّج الصّبح وانبلج وقولهم: "الحقّ أبلج"؛ نقيّ ما بين الحاجبين من الشّعر، من البَلَج والبلجة، وهي أن ينقطع الحاجبان فيكون ما بينهما نقيّا.

والعرب تكره القَرَن –وهو التقاء الحاجبين- وتعدّه من معايب الحواجب، وأهل القيافة تذمّه، ويستحبون البلج، خلاف ما عليه العجم.

وإذا دقَّقت النّظر علمت أنّ نظر العرب أدقّ، وطبعهم أرقّ.

روى الْبَيْهَقِيّ فِي دلائل النبوة عَن عَليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كَانَ أَبيض مشربا بحمرة ضخم الهامة أغرّ أَبْلَج أهدب الأشفار).

وعنده في وصف أم معبد (أبلج الوجه).

---

(1) الشيخ سيلوم:

وشَرَحَ الأَشْفارَ ذو العِرْفانِ   بِمَنْبَتِ الشَّعَرِ فِي الأَجْفَانِ

واحِدُهَا شُفْرٌ بضمِّ الشّينِ   والفَتْحُ قَدْ سُمِعَ عَـنْ يَقِينِ

وكان صلى الله عليه وسلم (أَزَجَّ) الحواجب، أَي مُرَقّقَهُما مَعَ امتدادهما وتَقَوُّسٍ وغزارة شعر، من الزَّجَج وهو طول الحاجبين ودقّتهما وسبوغهما إلى مؤخّر العينين. والحواجب: جمع حَاجِب وَهُوَ مَا فَوق الْعين بِلَحْمِهِ وشعره، أَو هُوَ الشّعْر الَّذِي فَوق الْعظم وَحده، سُمّي بِهِ لحجبه الشَّمْس عَن الْعين أَي مَنعه لَهَا، والحجب الْمَنْع.

وفي وصف هند عند الترمذي في الشمائل (أزجّ الحواجب سوابغَ[1] من غير قرن).

(سوابغ) جمع سابغة، أَي كاملات.

وعدل هند عن "الحاجبين" إلى "الحواجب" إِشَارَة إِلَى الْمُبَالغَة فِي امتدادهما حَتَّى كأنهما عدّة حواجب.

وإنّما قال: "أزجّ الحواجب" دون "مزجّج الحواجب" لأن الزّجج خلقة والتّزجيج صنعة[2]، والخلقة أشرف.

وكان صلّى الله عليه وسلّم (أَشْكَلَا) العينين، أي: في بياضهما شيء يسير من الحمرة[3]، يقال: شَكِلَت العين –بكسر الكاف– شُكْلَةً وَشَكَلاً إذا خالط بياضها حمرة، ويقال: "ماء أشكل" إذا خالطه دم، وفي جميع كتب الغريب: الشُّكْلة– بضم الشّين–: حمرة في بياض العين[4]. قال الشّاعر:

ولاَ عيبَ فِيهَا غَير شُكلَةِ عَينهَا... كذاك عِتَاقُ الخَيْلِ شُكْلٌ عُيُونُهَا

(1) حال من الحواجب، لأنه في المعنى فاعل، أي: دقّت وتقوّست حال كونها سوابغ أي كاملات. أو أنّه منصوب على المدح.

(2) ومنه قول الراعي النميري:

إذا ما الغانيات برزن يوما   وزَجَّجْن الحواجب والعيونا

(3) ولا ينافيه كونه أدعج كما مرّ. وقد جاء في حديث علي بن أبي طالب في دلائل النبوة للبيهقي: (مشرّب العين بحمرة) وهي عروق حمر دقاق. وفي حديث هند عنده أيضا: (وكان في عينيه تمزج من حمرة).

قال بعضهم:

ودَعَـجُ العَيْنِ بـــالِاشْتِدَادِ   فُسِرَ في البَيَاضِ والسَّوَادِ

والأَشْكَلُ الذي خُطوطٌ حُمْرُ   فـي عينِهِ وما تنافى الأَمْرُ

(4) قال أبو عبيد: الشُّهْلة حمرة في سواد العين. ولم ترد في وصفه صلى الله عليه وسلم.

وهي أمر محمودٌ محبوبٌ. وفي "السّيرة الحلبية" أنّها دليل الشهامة، وأنّها من علامات نبوته صلّى الله عليه وسلّم في الكتب القديمة.

تنبيهان:

✓ الأول:

هذا التفسير للشّكلة هو الصّواب المعروف في كتب اللّغة والغريب.

وذكر مسلم عن سماك بن حرب –راوي الحديث عن جابر بن سمرة– في تفسير أشكل العينين: "طَوِيلُ شَقِّ العَيْنَيْنِ" وكذا ذكره عنه الترمذي.

قال القاضي عياض: هذا وهم من سماك وغلط ظاهر، وصوابه ما اتّفق عليه العلماء ونقله أبو عبيد وجميع أصحاب الغريب أنّ الشّكلة حمرة في بياض العينين.

✓ الثاني:

حَذَفَ النّاظم العاطف بين الأوصاف في هذا البيت وفي غيره من أبيات المنظومة لِيَكُون أدعى إِلَى الإصغاء إِلَيْهِ وأبعث للقلوب على تفهّم خطابه؛ فَإِنّ اللَّفْظ إِذا كَانَ فِيهِ نوع غرابة وَعدم ألفة أصغى السّمع إِلَى تدبّره والفكر فِيهِ، فَجَاءَت الْمعَانِي مسرودة على نمط التّعديد إشعارا بِأَنّ كلّا مِنْهَا مُسْتَقل بِنَفسِهِ قَائِم بِرَأْسِهِ صَالح لانفراده بالغرض.

وقد جاء سردها على هذا النّحو في حديث عليّ وحديث هند وحديث أمّ معبد في وصف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

أَشْــــنَـبَ أَفْـلَـجَ ضَـــلِـيعَ الـفَـمِّ   يَـفْـتَـرُّ عَـنْ كَـالـبَـرَدِ الـمُـنْـهَـمِّ

وكان صلّى الله عليه وسلّم (أَشْنَبَ) أَي: أَبيض الْأَسْنَان مَعَ بريق وتحزيز فِيهَا، مِن الشَّنَب، وهو رونق الأسنان أي حسنها وماؤها، أو رقّتها وتحزيز فيها، أو بردها وعذوبتها، أو بياضها وبريقها وصفاؤها.

سئل رؤبة عن قول ذي الرّمة:

لميـاءُ في شـــفـتيـهـا حـوَّةٌ لـعسٌ   وفي الـلِّـثـاتِ وفي أنيـاـبِهـا شـــنـبُ

فأخذ حبّة رمّان، وقال: هذا هو الشّنب، أي: إنّ صفاء ما فيها كهذا.

وكان صلّى الله عليه وسلّم (أَفْلَجَ) الثّنيّتين، تثنية ثنيّة– بتشديد الياء–، والفَلَج فرجة ما بين الثنايا والرّباعيات، والفَرْق فرجة ما بين الثنيتين[1].

فأريد بالفلج في الآثار الفرق بقرينة نسبته إلى الثّنايا فقط. ولا إشكال فيه فقد يُستعمل في الحديث أحد اللّفظين المتقاربين مكان الآخر[2].

قيل: أَكثر الفلج فِي الْعليا، وَهِي صفة جميلَة عند العرب لَكِن مَعَ الْقلَّة[3] لِأَنَّهُ أنقى للفم وأطيب، وأتّم فِي الفصاحة لاتّساع الْأَسْنَان فِيهِ.

وكان صلّى الله عليه وسلّم (ضَلِيعَ الفَمِّ) أي عظيمه واسعه، قال الزّمخشري: والضّليع في الأصل الذي عظمت أضلاعه ووفرت فاتّسع جنباه، ثم استعمل في موضع العظيم وإن لم يكن ثمّة أضلاع. وهو كناية عن كمال الفصاحة وتمام البلاغة، والعرب تحمد ذلك وتذمّ صغر الفم[4].

---

(1) الثّنايا: هي الأسنان الأربع التي في مقدّم الفم؛ ثنتان من فوق، وثنتان من تحت. والرّباعيات: أربع أسنان بجانب الثنايا.

(2) وقال بعضهم: المفهوم من القاموس عدم الفرق بينهما حيث قال: "الفلج بالتحريك تباعد ما بين القدمين، وتباعد ما بين الأسنان وهو أفلج الأسنان، ولا بد من ذكر الأسنان يعني ليحصل الفرق".

(3) أما تباعد الأسنان كلها فعيب.

(4) الشيخ سيلوم:

فَمٌ ضَليعٌ واسِعٌ وذا دَليلْ على الفصاحةِ وفي النّاسِ جَميلْ

وتشديد الميم من "الفَمّ" في كلام الناظم يَجُوزُ فِي الشِّعْرِ، كما في تهذيب اللغة للأزهري والصّحاح للجوهري والمخصّص لابن سيده ولسان العرب لابن منظور[1].

ومنه قول العجّاج:

يا لَيْتَها قد خَرَجَتْ من فَمِّهِ[2] حتّى يعُودَ المُلْكُ في أُسْطُمِّه

(يَفْتَرُّ) افترَّ: ضحك ضحكا حسنا حتّى بدت أسنانه من غير قهقهة، وهو من فَرَرْتُ الدّابة أُفِرُّها فرًّا، إذا كشفتَ شفتها لتعرف سنّها، وافترَّ يفترُّ افتعل منه، وفي الصّحاح: افترّ فلان ضاحكا أي أبدى أسنانه (عَنْ) أسنان (كَ)مثل حَبّ (البَرَدِ) الماء النّازل من السّماء منعقدا على هيئة اللّؤلؤ (المُنْهَمِّ) المراد هنا: المتساقط من الغمام[3]، كما قال هند عند البيهقي في الدّلائل: (وكان يتبَسَّم عن مِثْلِ البَرَدِ المُنْحَدِرِ مِنْ مُتُونِ الغَمَامِ).

شبَّه به أسنانه في صفاءه وبياضه ولمعانه وبريقه.

والمعنى أنّه صلّى الله عليه سلّم كان إذا تبسّم بدت أسنانه الشّريفة كاللّؤلؤ اللّامع.

وكان بَرَّاقَ الثّنَايَا مِنْهُمَا يَخْرُجُ كَالنُّورِ إذَا تَكَلّمَا

(وكان) صلّى الله عليه وسلّم (بَرَّاقَ) مضيء (الثَّنَايَا) الأسنان الأربع التي في مقدّم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من تحت، تكتنفها الرّبَاعيات، روى ابن عساكر عن عليّ رضي اللَّه عنه

(1) قَالَ ابْنُ سِيدَهْ في المحكم: الْقَوْلُ فِي تَشْدِيدِ الْمِيمِ عِنْدِي أنه لَيْسَ بِلُغَةٍ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَلا تَرَى أنك لَا تَجِدُ لِهَذِهِ المشدَّدةِ الميم تصَرُّفاً إِنَّمَا التصرُّفُ كُلُّهُ عَلَى" ف و ه"، ومِنْ ذَلِكَ قولُ اللَّهِ تَعَالَى: **(يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)**.

(2) قال ابن السِّكِّيت: "ولو قال: من فُمِّه جاز".

(3) ومنه قول الشاعر:

يَضحكْنَ عن كالبَرَدِ المُنْهَمِّ تحت غراضيفِ الأُنُوفِ الشُمِّ

قال الخليل: المُنْهَمُّ: السائل دَسَماً، وهو ههنا المتساقط من الغمام. العين 461/4

قال: (كان رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم برّاق الثّنايا) (مِنْهُمَا يَخْرُجُ) يحتمل أنّ أصله من الثّنايا نفسها، ويحتمل أنّه من داخل الفم الشّريف وطريقه من بين ثناياه، كما جاء في حديث ابن عباس عند التّرمذي في الشّمائل: (إذا تكلّم رُئِيَ[1] كالنّور يخرج من بين ثناياه) (كَالنُّورِ) أي: شيءٌ له صفاء يلمع (إِذَا تَكَلّمَا) والكاف اسم بمعنى "مثل"، ويحتمل أنّ الكاف زائدة للتّفخيم، ويكون الخارج حينئذ نوراً حسّياً معجزة له ﷺ. ومن صار إلى أنه معنويّ، زاعماً أنّ المراد به لفظه الشّريف على طريق التّشبيه فقد وهم وما فهم قوله "رئي". قاله البيجوري والمناوي وغيرهما من شرّاح الشّمائل.

ضَـــحِـكُـهُ تَـبَسُّـــمُ وَرُبَّـمَـا   أَبْـدَى نَـوَاجِـذَ كَـدُرٍّ نُـظِـمَـا

(ضَحِكُهُ) صلّى الله عليه وسلّم، أي جُلُّه وأكثَرُهُ (تَبَسُّمٌ) أقلّ الضّحك وأحسنه، وهو انبساط الوجه من السّرور حتى تظهر الأسنان بلا صوت، جعله من الضّحك مجازا، إذ هو مبدأه، فهو كجعل السِّنَة مِنَ النَّوْم.

وهذا جلّ حاله صلّى الله عليه وسلّم كما جاء في وصف هند عند الترمذيّ في الشّمائل (جلّ ضحكه التبسّم).

وعنده عن جابر بن سمرة قال: (كان صلّى الله عليه وسلم لا يضحك إلا تبسّما).

وعن عبد الله بن الحارث قال: (ما كان ضحك رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلا تبسّما).

وروى الحاكم في المستدرك عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: (ما رأيت النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم مستجمعا قطّ ضاحكا حتّى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسّم).

واللّهوات: جمع لهاة، وهي اللّحمة المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللّسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم.

(1) بضم الراء وكسر الهمزة. وقال التلمساني: بكسر الراء: "رِيءَ" على وزن "قيل" و"بيع"، وهو أفصح.

وهذا الحصر يُحمل على غالب أحواله لما سبق، ولِمَا سيأتِي مِنْ أنّه صلى الله عليه وسلم ضحك حتّى بدت نواجذه.

ولذا قال الناظم: (وَرُبَّ) حرف جرّ شبيه بالزائد، المراد به هنا التّقليل (مَا) كافّة لـ"رُبّ" عن العمل (أَبْدَى) أَظْهَرَ (نَوَاجِذَ) جمع ناجذ. قيل: السنّ بين الضِّرْس والنّاب، وقيل: الأنياب، وقيل: آخر الأضراس، وهو ضِرْسُ الْحُلُم؛ لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل، وقيل: الأضراس كلّها نواجذ.

قال ابْن الْأَثِير في "النّهاية": النّواجذ من الأسنان: الضّواحك، وهي التي تبدو عند الضّحك.

وهو المراد في الحديث، لأنّه ما كان يبلغ به الضّحك إلى أن تبدو أواخر أضراسه، كيف وقد جاء في صفة ضحكه: "جلّ ضحكه التبسّم"، وإن أريد به الأواخر فالوجه فيه أن يراد به مبالغة مثلِهِ في ضَحِكِهِ، من غير أن يراد ظهور نواجذه في الضّحك، وهو أقيس القولين؛ لاشتهار النواجذ بأواخر الأسنان. انتهى

قال القاضي عياض: هذا إن شاء الله هو الصّواب، لأنه عبَّر عن أكثر ضحكه بالمبالغة في كَشْرِ أسنانه حتى تبدو أنيابُهُ، إذ لا تبدو عند التبسّم الخفيف الذي كان جلّ ضحكه، وإنما تبدُو منه الثنايا، وقد قال القاضي أبو عبد الله في شرحه: إنه انفتح فُوه من الضّحك حتى رأى آخِرَ أضراسه مَنِ استقبله، وحَمَلَ النّواجذَ هُنا على أسنان العقل، وهذا خلاف المعروف من ضحكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1]. انتهى

(كَدُرٍّ) جمع دُرّة، وهي اللّؤلؤة العظيمة (نُظِمَا) سُلِكَ في عِقْدٍ.

---

(1) قال القاضي محمد بن أحمدو فال التندغي في نظم الشمائل:

فِي ضِحْكِهِ تَبَسُّمٌ يَكْفِيهِ   لَمْ يُرَ ضَاحِكًا بِمِلْءِ فِيهِ

وقد جمع الحافظ السيّد أحمد بن محمد الصديق الغماري المغربي جزءًا لطيفا في الأحاديث التي ورد فيها أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم "ضحك حتّى بدت نواجذه" سمّاه "شوارق الأنوار المنيفة بظهور النّواجذ الشّريفة" وبلغت عدّتها عنده تسعة عشر حديثا. قال العلامة محمد فال أباه بن عبد الله العلوي الشنقيطي: "والظّاهر أنه لم يستوعب" واستدرك عليه حديثين[1].

قيل: ما كان يضحك إلّا في أمر الآخرة، وأمّا في أمر الدّنيا فلم يزد على التّبسّم. قال القاري: "وهو تفصيل حسن، وتعليل مستحسن".

كان جَهِيرَ الصَّوْتِ فِيهِ صَحَلُ ونُطْقُهُ مُرَتّلٌ مُفَصَّلُ

و(كان) صلّى الله عليه وسلّم (جَهِيرَ الصَّوْتِ) أي عالي الصوت، فليس فيه خفاء ولا تكسّر ككلام النساء، وكانت العرب تمتدح بعلو الصّوت وتذمّ بضدّه، ولذا تمدّحوا بسعة الفم وذمّوا بصغره، وقد جاء وصفه بذلك في رواية ابن أبي عاصم لحديث أم معبد في الآحاد والمثاني، وكان (فِي) صوت(ـهِ صَحَلُ) شبه البحّة الخفيفة المستحسنة مع غلظ الصّوت، وفي رواية: صهل -بهاء بدل الحاء- وهو قريب منه، لأنّه صوت الفرس وهو يصهل بشدّة وقوة.

قال القاضي محمد بن أحمدو فال التندغي في نظم الشمائل:

وصَحَلٌ وصَهَلٌ وَزْنُ الفَرَحْ   لِحِدَّةِ الصَّوْتِ يَشُوبُهَا بَحَحْ

وقد جاء وصف صوته صلّى الله عليه وسلم بذلك في رواية الطّبراني لحديث أم في معبد في معجمه الكبير.

(ونُطْقُهُ) أي كلامه صلّى الله عليه وسلّم (مُرَتّلٌ) أَيْ فِي تَأَنٍّ وَتَمَهُّلٍ مَعَ تَبْيِينِ الْحُرُوفِ وَالْحَرَكَاتِ بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ السَّامِعُ مِنْ عَدِّهَا، روى أبو داود عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه

---

(1) نيل السول من شمائل الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ص103.

قال: (كَانَ فِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْتِيلٌ، أَوْ تَرْسِيلٌ)، شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي. وَمَعْنَى التَّرْتِيلِ وَالتَّرْسِيلِ وَاحِدٌ، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ بِالْوَاوِ فَهُوَ عَطْفُ تَفْسِيرٍ.

وفي نسخة من النّظم: "مُبَيَّنٌ" أي مُوَضّح، (مُفَصَّلُ) أَيْ مَفْصُولٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ غيْرُ متداخل.

روى الترمذي في الشّمائل عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: (مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْرُدُ سرْدَكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فَصْلٍ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ).

أي لم يكن صلّى الله عليه وسلّم يستعجل ويوالي بين جُمَل كلامه بحيث يأتي بعضها إثر بعض لأنّ ذلك يورث لبسا على السّامعين، بل كان يتكلّم بكلام ظاهر مفصول ممتاز بعضه من بعض، بحيث يتبيّنه من يسمعه، ويمكنه عدّه، وهذا أدعى لحفظه ورسوخه في ذهن السّامع، مع كونه يوضّح مراده ويبيّنه بياناً تاماً بحيث لا يبقى فيه شبهة.

وروى عَنِ هِنْد قَالَ: (كَلَامُهُ فَصْلٌ، لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ).

(فصل) إما بمعنى فاصل بين الحق والباطل، وإما بمعنى مفصول بعضه من بعض، والأوّل أبلغ والثّاني أنسب بسياقها هذا.

(لا فضول) أي زيادة في كلامه على المحتاج إليه (ولا تقصير) فيه عن أداء المراد، بل هو على غاية المطابقة لما اقتضاه المقام من إيجاز أو إطناب أو مساواة إذ هو شأن الفصيح، ولا أفصح منه، بل لا مساوي له في فصاحته صلّى الله عليه وسلّم، وقد جمع النّاس من كلامه المفرد والموجز البديع الذي لم يسبقه إليه أحدٌ دواوينَ.

وروى أَبُو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كَانَ كَلاَمُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلاماً فَصْلاً يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ) أي من العرب وغيرهم، لظهوره وتفاصيل حروفه وكلماته، واقتداره لكمال فصاحته على إيضاح الكلام وتبيينه.

وكَـانَ ذَا عَـقِـيـقَـةٍ إنْ تَـنْـفَـرِقْ   فَـرَقَـهَـا، يَـتْـرُكُـهَـا إنْ تَـتَّـفِـقْ

(وكَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (ذَا عَقِيقَةٍ) العقيقة: شعر رأسه الشّريف، من العقّ، وهو في الأصل: القطع والشّقّ، ولذا سُمّيت الذّبيحة للمولود يوم سابعه عقيقةً لشقّ حلقها، والشّعرُ الخارجُ على رأس المولود من بطن أمّه عقيقةً لأنّه يُحلق، ثمّ قيل للشّعر النابت بعد ذلك عقيقة لأنّه منها ونباته من أصولها، فهو مجاز مرسل[1]، أو لأنّه شبيه بها فهو استعارة[2]، (إِنْ تَنْفَرِقْ) أي إذا قبلت عقيقته الفرق بسهولة من المفْرِق؛ بأن كان حديثَ عَهْدٍ بنحو غُسْلٍ (فَرَقَهَا) أي جعل شعره نصفين نصفا عن اليمين، ونصفا عن اليسار، قيل: بالمشط، وقيل: بيده، و(يَتْرُكُهَا) فلا يفرقها، بل يسدلها، أي: يرسلها على جبينه (إِنْ تَتَّفِقْ) أي: إن لم تقبل الفرق بأن كان شعره مختلطا متلاصقا.

روى الترمذي في الشمائل عن هِنْد قال: (إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيقَتُهُ فَرَقَهَا، وَإِلَّا فَلَا.[3] يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ إِذَا هُوَ وَفَّرَهُ).

فيجوز الفرق والسّدل[4]، لكنّ الفرق أفضل، لأنّه الذي رجع إليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ المشركين كانوا يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلونها، فكان صلّى الله عليه وسلّم يسدل -بكسر الدال وضمها- رأسه، لأنه كان يحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق واستمرّ عليه. رواه التّرمذي في الشّمائل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

---

(1) المجاز المرسل: كلّ مجاز علاقته غير المشابهة.

(2) الاستعارة: مجاز علاقته المشابهة. وأصلها تشبيه حذف أحد طرفيه ووجه شبهه وأداته.

(3) «وإلّا فلا» كلام تام، وما بعده مستأنف ليس من مدخول النفي؛ وهو ما حقّقه العصام، وعليه شرح ابن حجر والمناويّ والقاري وجسّوس والباجوري.

(4) سدل الشعر: إرساله وإرخاءه، والمراد هنا: إرساله على الجبين واتخاذه كالقُصّة.

شَـــعَـرُهُ مُـغْـدَوْدِفٌ يُـوَفِّـرُهْ لِشَـــحْمَـةِ الْأُذْنِ وَطَوْرًا يَضْـــفِرُهْ

(شَعَرُهُ) صلّى الله عليه وسلّم (مُغْدَوْدِفٌ) الغُداف: الشَّعرُ الطَّويلُ الأسودُ، واغدَوْدَفَ اللّيلُ وأَغْدَفَ: أَقْبَل وأَرخى سُدُولَ ظُلَمه. وفي نسخة من النّظم (مُغْدَوْدِنٌ) -بالنّون- وَشَعَرٌ غَدَوْدَنٌ ومُغْدَوْدِنٌ: كَثِيرٌ مُلْتَفٌّ طَوِيلٌ. واغْدَوْدَنَ الشَّعَرُ: طَالَ وَتَمَّ؛ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

وقـامـتْ تُـرائـيـكَ مُـغْـدَوْدِناً إِذَا مَـا تَـنُـوءُ بِـهِ آدَهـا

قال أَبو عُبَيْدٍ: المُغْدَوْدِنُ الشَّعَرُ الطَّوِيلُ. وَقَالَ أَبو زَيْدٍ: شَعَرٌ مُغْدَوْدِنٌ شَدِيدُ السَّوَادِ نَاعِمٌ.

(يُوَفِّرُهْ) يتركه وافرا حتّى يبلغ (لِشَحْمَةِ الأُذْنِ) وهي ما لان من أسفلها. والوَفْرَةُ: شَعْرُ الرَّأْسِ إِذَا بَلَغَ شَحْمَةَ الأُذُنِ.

وَاللِّمَّةُ -بَيْنَ الْوَفْرَةِ وَالْجُمَّةِ-: ما نزل عن شحمة الأذن ولم يصل إلى المنكبين.

والجُمَّةُ -أكثر من الوفرة-: ما نزل عن ذلك إلى المنكبين.

قال بعضهم:

الوَفْرَةُ الشَّعْرُ لِشَحْمَةِ الأُذُنْ وَجُمَّةٌ إِنْ هِيَ لِمَنْكِبٍ تَكُنْ

وَسَمِّ ما بَيْنَهُمَا بِاللِّمَّةِ قَدْ قالَ ذا جُمْهُورُ أَهْلِ اللُّغَةِ

هذا قول جمهور أهل اللّغة، وهو الذي ذكره أصحاب "المحكم" و"النهاية" و"المشارق" وغيرهم[1].

وحاصل الأحاديث الواردة في وصف النّبي صلّى الله عليه وسلّم أنّ شعره صلّى الله عليه وسلّم كان جمّة، وفرة، لمة، فوق الجمّة ودون الوفرة، وعكسه.[2]

---

(1) وهذه الثلاثة اضطرب أهل اللغة في تفسيرها، وأقرب ما وفّق به أنّ فيها لغات، وكل كتاب اقتصر على شيء منها، كما يشير إليه كلام «القاموس» في مواضع؛ قاله الباجوري رحمه الله تعالى.

(2) انظر تفصيل ذلك في كتاب الشمائل للإمام الترمذي وشروحه، بَابُ مَا جَاءَ فِي شَعْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

واختلاف الوصف إنما هو بحسب اختلاف الأوقات وتنوّع الأحوال.

(وَ) كان صلّى الله عليه وسلّم (طَوْرًا) أحيانا (يَضْفِرُهْ) أي يجعل شعره ضفائر وغدائر.

روى الترّمذي في الشّمائل عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ: (قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ قَدْمَةً وَلَهُ أَرْبَعُ غَدَائِرَ).

وهي القدمة التي كان فيها فتح مكة، وقدوماته صلّى الله عليه وسلّم لمكّة بعد الهجرة أربع متّفق عليها: قدوم عمرة القضاء، وقدوم الفتح، وقدوم الجعرّانة -لما رجع من حنين-، وقدوم حجّة الوداع.

والغدائر: جمع غديرة، بمعنى الذّؤابة، وهي الخصلة من الشّعر إذا كانت مرسلة. فإن كانت ملويّة فعقيصة.

وروى عَنْها أيضا قَالَتْ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَا ضَفَائِرَ أَرْبَعٍ).

ليخرج الأذن اليمنى من بين غديرتين يكتنفانها، ويخرج الأذن اليسرى من بين غديرتين يكتنفانها، تخرج الأذنان ببياضهما من بين تلك الغدائر، كأنّها توقّد الكواكب الدّرّيّة بين سواد شعره، قاله ابن أبي خيثمة.

والضّفر: نسج الشعر وغيره.

وفيه: حِلّ ضّفْرِ الشّعر حتّى للرجال، وليس مما يختصّ بالنّساء، إلا باعتبار ما اعتيد في أكثر البلاد في هذه الأزمنة المتأخرة، ولا اعتبار بذلك.

وكـان رَجْلًا غَـيْـرَ جَـعْـدٍ مُـفْـرِطِ   بَـلْ كَـانَ بَـيْـنَ سَـــبَـطٍ وَقَـطَـطِ

(وكان) صلّى الله عليه وسلّم (رَجْلًا) رجل -بفتح الراء، وكسر الجيم وفتحها- الشَّعْر: مسترسله كأنه مشط مع تكسّر وتثنّ قليل. قال القرطبي: وكان شعره صلّى الله عليه وسلّم بأصل الخلقة مسرّحا. (غَيْرَ جَعْدٍ مُفْرِطِ) الجعودة: تكسّر الشعر الشديد.

(بَلْ كَانَ) شعره صلّى الله عليه وسلّم، وسطا (بَيْنَ سَبَطٍ) -بسكون الباء وفتحها وكسرها- وَهُوَ المسترسل من الشّعْر الذي لا يتكسّر منه شيء، كشعر الهنود[1] (وَقَطَطِ) -بفتحتين- وَهُوَ الشَّديد الجعودة، كشعر الحبش والزّنوج.

والحاصل: أنّ شعره صلّى الله عليه وسلّم ليس بنهاية في الجعودة، وهو: تكسّره الشّديد كشعر الحبش والزّنوج، ولا بنهاية في السّبوطة، وهو عدم تكسّره أصلا كشعر الهنود والجاوة، بل كان وسطا بينهما، فكان فيه بعض تكسّر، و «خير الأمور أوساطها».

قال الزّمخشري: الغالب على العرب جعودة الشّعر، وعلى العجم سبوطته. وقد أحسن الله تعالى برسوله الشّمائل، وجمع فيه ما تفرّق في الطّوائف من الفضائل.

لَمْ يَبْلُغِ العِشْـــرِينَ شَـــيْـبُ لِحْيَتِـهْ وشَـــعْرِهِ، فَـكَـانَ ذا مِـنْ حِـلْـيَـتِـهْ

(لَمْ يَبْلُغِ العِشْرِينَ شَيْبُ لِحْيَتِهْ) أراد بها ما قابل الرّأس، فيشمل العنفقة والصّدغين (وشَعْرِهِ)، روى مالك في الموطأ والبخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: (وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعْرَةً بَيْضَاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

في رواية مسلم: (إِنَّمَا كَانَ الْبَيَاضُ فِي عَنْفَقَتِهِ[2] وَفِي الصُّدْغَيْنِ[3] وَفِي الرَّأْسِ نُبَذٌ) أي: شعرات متفرّقة.

(فَكَانَ) هـ(ـذا) العدد القليل من الشّيب (مِنْ حِلْيَتِهْ) أي زينته.

وإنما كان قلّةُ شيبِهِ زينة لأنّ النّساء يكرهنه غالبا، ومَنْ كره مِنَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شيئا كفر.

---

(1) الشيخ سيلوم:

معنَى السُّبُوطَةِ مِنَ المعْلومِ الإنْسِدالُ كَشُعُورِ الرُّومِ

(2) العَنْفَقَة: ما بَيْنَ الذّقن والشّفة.

(3) تثنية صُدْغ: وهو ما بين لحاظ العين إلى أصل الأذن. ويسمى الشعر الذي تدلى على هذا الموضع أيضاً صُدْغا، ذكره في «المصباح». قال القسطلاني: وهو المراد هنا.

وإنّما كان الشّيب شينا مع أنّه نور ووقار لأنّ فيه إزالة بهجة الشّباب ورونقه وإلحاقه بالشّيوخ الذين يكون الشّيب فيهم عيبا عند النساء.

وقد روى البيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: (هل كان شاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم؟)، فقال: (ما شَانَهُ الله تعالى بالشّيب).

ونفيُ الشّيب هنا المراد به نفي كثرته لا أصله كما يُعلم ممّا سبق.

وكَـانَ شَـــثْـنَ قَـدَمٍ وَكَـفِّ وَسَـائِـلَ الأَطْرَافِ أَقْنى الأَنْفِ

(وكَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (شَثْنَ) غليظ، وهو المعنى المتبادر، ويؤيّده رواية (ضخم الكفّين والقدمين)، (قَدَمٍ) وهي: ما يطأ الأرض مِن الرِّجْل (وَكَفٍّ) وهي: الرّاحة مع الأصابع، سمّيت به لأنّها تكفّ الأذى عن البدن. وجَمَعَ بين الكفّين والقدمين في مضاف واحد لشدّة تناسبهما.

قيل: ويحمد ذلك في الرّجال لأنّه أشدّ لقبضتهم، ويذمّ في النّساء.

مسألة:

إن قيل: هذا الوصف يخالف ما سبق من حديث أنس قال: (ما مَسَسْتُ حريرًا ولا ديباجًا ألين من كَفِّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم).

فالجواب: الجمع بينهما بأنّ المراد اللّين في الجلد، والغلظ في العظام، فتجتمع له نعومة البدن وقوته.

قال ابن بطّال: كانت كفّه صلّى الله عليه وسلم ممتلئة لحما غير أنّها مع غاية ضخامتها كانت ليّنة، كما ثبت في حديث أنس[1].

---

(1) الشيخ سيلوم:

وما مِنَ الشَّثْنِ أتى في وَصْفِ قَدَمِ أفْضَلِ الورى والكَفِّ
بغِلَظٍ وبـامْتِلاءٍ فَـسِّـرِ دُونَ خُشُونَةٍ ودُونَ قَصْرِ

(وَسَائِلَ الأَطْرَافِ) سَائِلُ الْأَطْرَافِ –من السَّيَلان– أي: ممتدّ الأصابع طويلها طولا معتدلا بين الإفراط والتّفريط، فكانت مستوية غير متعقّدة وَلَا متثنّية ولا منقبضة، وذلك مما يتمدّح به.

وفي رواية للحديث: شَائِلُ الْأَطْرَافِ –شكٌّ من الرّاوي–: أَي مرتفعها، وَهُوَ قريب من سَائل ويؤول لمعناه، من قَوْلهم: شال الْمِيزَانُ ارْتَفَعت إِحْدَى كفّتيه، يَعْنِي كَانَ مُرْتَفع الْأَصَابِع بِلَا احديداب وَلَا تقبّض.

(أَقْنى الأَنْفِ) من القَنَا، وهو: طول الأنف ودقّة أرنبته مع حَدَب[1] في وسطه[2].

والمراد أنّه طويل الأنف مع دقّة أرنبته، ومع حدب في وسطه، فلم يكن طوله مع استواء، بل كان في وسطه بعض ارتفاع، وهو وصفُ مَدْحٍ.

وَوَاسِــعَ الجَبِينِ سَــهْـلَ الخَـدَّيْنْ   شَــبْحَ الـذِّرَاعَينِ طَوِيـلَ الزَّنْـدَيْنْ

(وَ) كان صلّى الله عليه وسلّم (وَاسِعَ الجَبِين) يَعْنِي الجبينين[3]، وهما مَا اكتنف الْجَبْهَة عَن يَمِين وشمال فوق الصّدغ، فتكون الجبهة بين جبينين. وَالْمرَاد بسعتهما امتدادهما طولا وعرضا، وَذَلِكَ مَحْمُود مَحْبُوب عند كلّ ذي ذوق سليم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَسِيلَ الجبين) والأسيل: هو المستوي. أخرجه عبد الرزاق والبيهقي وابن عساكر.

ووصفه عليّ كما عند ابن سعد وابن عساكر فقال: (صَلْت الجبين) أي: واضحه.

---

(1) بعض ارتفاع.

(2) قال بعضهم:

دِقَّةُ أَرْنَبَةِ أنْفٍ مَعْ حَدَبْ   في وسْطِهِ القَنَا وطُولٍ مُسْتَحَبْ

(3) «أل» في «الجبين» للجنس، فيصدق بالجبينين كما هو المراد.

قال ابن أبي خيثمة: وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْلَى الْجَبِينِ، إِذَا طَلَعَ جَبِينُهُ مِنْ بَيْنِ الشَّعْرِ أَوِ اطَّلَعَ فِي فَلَقِ الصُّبْحِ أَوْ عِنْدَ طَفَلِ اللَّيْلِ أَوْ طَلَعَ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّاسِ تَرَاءَوْا جَبِينَهُ كَأَنَّهُ ضَوْءُ السِّرَاجِ الْمُتَوَقِّدِ يَتَلَأْلَأُ.

وَكَانُوا يَقُولُونَ: هُوَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ شَاعِرُهُ حسّان بن ثابت:

مَتَى يَبْدُ فِي الدَّاجِ الْبَهِيمِ جَبِينُهُ يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ الدُّجَى الْمُتَوَقِّدِ

فَمَنْ كَانَ أَوْ مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدِ نِظَامٌ لِحَقٍّ أَوْ نَكَالٌ لِمُلْحِدِ.

كما في دلائل النبوة للبيهقي.

(سَهْلَ الخَدَّيْنْ) أي: غير مرتفع الوجنتين، لَيْسَ فيهمَا نتوء وَلَا ارْتِفَاع، لا يفوت بعضُ لحمِهما بعضا. أَرَادَ أَنّ خدّيه أسيلان قَلِيلا اللَّحْم رَقِيقا الْجلد. وَهُوَ بِمَعْنى خبر الْبَيْهَقِيّ وَالبزّار: (كَانَ أسيل الْخَدين)، وَذَلِكَ أعذب وأعلى وأكمل وأجمل عِنْد الْعَرَب.

(شَبْحَ الذِّرَاعَينِ) تثنية ذراع، وهو: ما بين مفصل الكفّ والمرفق، أو من المرفق إلى أطراف الأصابع. أي: عريضهما ممتدّهما، ففي «المجمل» شبحت الشّيء: مددته.

(طَوِيلَ الزَّنْدَيْنْ) تثنية زَنْد، وهو -كما قال الزّمخشري في «الفائق» -: ما انحسر عنه اللّحم من الذراع، وله رأسان: الكوع[1] والكرسوع[2]. أي: عظيمهما.

كَانَ عَرِيضَ الصَّدْرِ كَثَّ اللِّحْيَةِ عُنُقُهُ كَمِثْلِ جِيدِ دُمْيَةِ

و(كَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (عَرِيضَ) رَحْبَ وَوَاسِعَ، والعَرْض: ما يقابل الطُّول (الصَّدْرِ) وذلك آية النّجابة وممّا يمدح به في الرّجال.

(كَثَّ اللِّحْيَةِ) أي غليظَها غزيرَ شعرها كثيفَهُ كثيرَ منابِتِهِ. وفي رواية (كان كثيف اللّحية)، وفي أخرى (عظيم اللّحية).

(1) طرف الزّند الذي يلي الإبهام.

(2) طرف الزند الذي يلي الخنصر.

واللّحية– بكسر اللّام على الأفصح–: الشّعر النّابت على الذّقن، وهو مجتمع اللّحيين.

وتفسير ذلك بأنه "غير دقيقها ولا طويلها" ينافي الرّواية والدّراية، لأنّ الطّول مسكوت عنه، مع أنّ عظم اللّحية بلا طول غير مستحسن عرفا، كما أنّ الطّول الزّائد على القبضة غير ممدوح شرعا. قاله في جمع الوسائل.

قال الباجوري في المواهب اللّدنية: وعلى كُلٍّ فالمعنى أنّ لحيته صلّى الله عليه وسلّم كانت عظيمة. واشتراط جمع من الشّرّاح مع الغلظ القصر متوقّف على نقل من كلام أهل اللّسان.اهـ

(عُنُقُهُ) رقبته (كَمِثْلِ جِيدِ) الجيد: العنق، فهما بِمَعْنى وَاحِد، وَإِنَّمَا عبّر بِهِ وغاير بينهما تفنّنًا وَكَرَاهَةً للتّكرار اللَّفْظِيّ (دُمْيَةٍ) الدّمية: الصُّورَة المنقوشة من نَحْو رُخَام أَو عاج[1].

وقد بُحِثَ في هذا التّشبيه بأنّ في أنواع المعادن ما هو أحسن نضارة من العاج ونحوه، كالبلّور، فَلِمَ آثر العاج؟

وأجيب بأنّ هذه الصّورة كَانَت مألوفة عِنْدهم دون غَيرهَا، وبأنّ الغالب تشبيه الأشكال والهيئات بالصّورة لأن مصوّرها يبالغ في تحسينها ويتأنّق في صنعتها ما أمكنه.

وقد روى التّرمذي في الشّمائل عن هند قال: (كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الْفِضَّةِ).

وقوله (فِي صفاء الْفضّة) قيل: صفة لـ"دمية"، أو لـ"جيد دمية"، أو خبر بعد خبر لـ"كأنّ عنقه". وفيه إيماء إلى بياض عنقه الذي يبرز للشّمس المستلزم أنّ سائر أعضائه أولى، وإشارة إلى أنّ بياضه كان في غاية الصّفاء لا أنّ بياضه كريه اللّون كلون الجصّ وهو الأبيض الأمهق.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيّ: وصف عُنُقه بالدّمية فِي الاسْتوَاء والاعتدال وظرف الشّكل وَحسن الْهَيْئَة والكمال، وبالفضّة فِي اللَّوْن وَالْإِشْرَاق وَالْجمال.

---

(1) قال بعضهم:

وَدُمْيَةٌ صُورَةُ عاجٍ عُبِّرَا   بِهِا عنِ اسْتِوا وحُسْنٍ صُوِّرَا

ضَـــخْمَ الـكَرَادِيسِ جَلِيـلَ الـكَـتِـدِ عَبْـلَ الـذِّرَاعَيْنِ معًا وَالعَضُـــدِ[1]

وكان صلّى الله عليه وسلّم (ضَخْمَ) غليظَ عظيمَ (الكَرَادِيسِ) جمع كُرْدُوس، وهي رُؤُوس العِظَام مثل الرّكبتين والمرفقين على ما في الفائق، أو كلّ عظمين التقيا في مفصل على ما في القاموس[2].

أراد أنّه صلّى اللّه عليه وسلّم ضخم الأعضاء جسيمها، وهو يدلّ على نجابة صاحبه وقوة الحواسّ وكمال قواه الباطنية.

(جَلِيلَ) عظيمَ (الكَتِدِ) الكتد –بفتح التاء وكسرها–: مجتمع الْكَتِفَيْنِ والظَّهْر، وهو الكاهل. وهو يدلّ على غاية القوّة ونهاية الشجاعة.

(عَبْلَ) ضَخْمَ (الذِّرَاعَيْنِ) تثنية ذراع، وهو: ما بين مفصل الكفّ والمرفق، أو من المرفق إلى أطراف الأصابع (معًا وَالعَضُدِ) وهو السّاعد من المرفق إلى الكتف.

أَجْـرَدَ ذَا مَسْـــرُبَـةٍ رَقِـيـقَـهْ وعُـكْـنَـةٍ رائِـقَـةٍ أَنِـيـقَـهْ

وكان صلّى الله عليه وسلّم (أَجْرَدَ) أي غيرَ أشعَرَ، وهو من عمّ الشّعر جميع بدنه، فالأجرد: من لم يعمّه الشّعر، فيصدُق بمَنْ في بعض بدنه شعر كالمسربة والسّاعدين والسّاقين، وقد كان له صلّى الله عليه وسلّم في ذلك شعر، كما سيأتي في البيت اللّاحق، فوَصْفُه صلّى الله عليه وسلّم بالجَرَد باعتبار أكثر مواضعه، إمّا بجعل الأكثر في حكم الكلّ، أو تغليب ما لا شعر له على ما له شعر.

(ذَا) صاحب (مَسْرُبَةٍ) المسربة: الشّعْر الدّقيق –كأنّه قضيب– الّذي يَمْتَد من الصَّدْر إِلَى السُّرَّة (رَقِيقَهْ) وفي نسخة أخرى للنّظم "دقيقة"، وبهما ضُبِطَ قولُ هند عند التّرمذي في الشّمائل

---

(1) في رواية (مَعَ المُشَاشِ وهْوَ عَبْلُ العَضُدِ). والمشَاشِ: جمع مُشَاشة: رؤوس العظام كالمرفقين والكتفين والركبتين. فهي بمعنى الكراديس. والمثبت رواية النّاظم كما في شرحه.

(2) قال بعضهم:

كُرْدُوسٌ العَظْمانِ إنْ يجتمِعا ... في مفصل على كراديسَ اجْمَعَا

(دقيق المسربة)، بالدال وهو الأشهر في الرّواية، ويجوز فيه الرّاء كما قال التّلمساني. ووَصْفُها بالدّقّة للمبالغة؛ إذ هي الشعر الدّقيق.

وعند الترمذيّ في الشّمائل عن عليّ: (طويل المسربة)؛ فأفاد الحديثان أنّها دقيقة طويلة.

وفي وصف هند عند التّرمذي في الشّمائل (مَوْصُولُ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالْخَطِّ، عَارِي الثَّدْيَيْنِ وَالْبَطْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ).

(اللَّبَّة) وهي المنحر: النّقرة التي فوق الصّدر[1]، أو موضع القلادة منه.

(يجري كالخطّ) أي يمتدّ مشابها للخطّ المستطيل، شبّهه بجريان الماء وهو امتداده في سيلانه. وهو ما سبق من معنى المسربة.

(عاري الثّديين والبطن مما سوى ذلك) أي ليس عليهما شعر.

(و) كان صلّى الله عليه وسلّم ذا (عُكْنَةٍ) العكنة: ما انطوى وتثنّى من لحم البطن سِمَنًا (رائِقَةٍ) حسنة (أَنِيقَهْ) مُعجِبة.

روى الطيالسي والطبراني عن أم هانئ أنّها قالت: (ما رأيتُ بطنَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلم- إلا ذكرتُ القراطيسَ المثنيَّة بعضُها على بَعْضٍ)، وفي رواية أخرى (فَنَظَرْتُ إِلَى عُكَنِهِ فَوْقَ رِدَائِهِ وَكَأَنَّهُ طَيُّ الْقَرَاطِيسِ).

ولعلَّ رؤيتها بطنه قبل تحريم رؤية الأجنبية للأجنبي؛ إذ هو -صلّى الله عليه وسلّم- ابن عمّها، أو قبل البعثة.

وروى البيهقيّ في دلائل النّبوة من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: (كان له صلّى الله عليه وسلّم ثلاث عكن يغطّي الإزار منها اثنتين وتظهر منها واحدة).

---

(1) الشيخ سيلوم:

واللَّبَّةُ النُّقْرَةُ فوق الصَّدْرِ والنُّقْرَةَ اشْرَحْ بمَحَلِّ النَّحْرِ

قال الزّبيدي في شرح الإحياء: ومنهم من قال: واحدة وتظهر اثنتان.

ثم قال: تلك العكن أبيض من القُبَاطي[1] المطواة، وألين مسّا.

بِـمَـنْـكِـبَـيْـهِ شَـــعَـرٌ وَبِـأَعَـا   لِي الصَّـــدْرِ مِنْـهُ وَالـذِّرَاعَيْنِ مَعَا

(بِمَنْكِبَيْهِ) تثنية مَنْكِب: مجتمع رأس الكتف والعضد (شَعَرٌ) غزيرٌ كثيرٌ (وَبِأَعَالِي) جمعُ أعلى (الصَّدْرِ مِنْهُ وَالذِّرَاعَيْنِ) تثنية ذراع، من المرفق إلى الأصابع (مَعَا).

في حديث هند عند التّرمذي في الشّمائل أنّه صلّى الله عليه وسلّم كان (أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ وَالْمَنْكِبَيْنِ وَأَعَالِيَ الصَّدْرِ).

أي: أنّ شعر هذه الثّلاثة غزير كثير. والأشعر ضدّ: الأجرد، وهو أفعل صفة لا أفعل تفضيل. وفي القاموس: الأشعر كثير الشّعر وطويله. وفي أكثر الشّروح: أي كثيره. وقيل: طويله، والمقام يحتملهما، والله أعلم.

وَخَـاتَـمُ الـنُّـبُـوَّةِ الـلّـذْ كَـانَ لَـهْ   بِـنُـغْـضِ يُسْـــرَاهُ كَـزِرِّ الـحَـجَـلَـهْ

(وَخَاتَمُ) بفتح التّاء وكسرها، والمراد به هنا: الأثر الحاصل له بين كتفيه، لمشابهة الخاتم الذي يختم به، وهو الطّابع، وإضافته لـ(النُّبُوَّةِ) لدلالته عليها بمعنى أنه علامة لنبوّته صلّى الله عليه وسلّم فإنّه نعت به في الكتب المتقدّمة، هو (اللّذْ) لغة في الاسم الموصول "الذي" (كَانَ لَهْ بِنُغْضِ) النُّغْض والنَّاغِض: أعلى الكتف[2]، وقيل: هو العظم الرّقيق الّذي على طرفه، وقيل: ما يظهر عند التّحرّك.

---

(1) القُبَاطيّ: واحدة القِبطية ثيابٌ من كَتَّان بيضٌ دقيقة تُنسج بمصر.

(2) الشيخ سيلوم:

وَالنُّغْضُ وَالنَّاغِضُ وَالغُضْرُوفُ   لِمَا عَلَا مِنْ كَتِفٍ مَعْرُوفُ

(يُسْرَاهُ) عند كتفه اليسرى، قال الحافظ: قال العلماء: السرّ في ذلك أنّ القلب في تلك الجهة. قلت: ويؤيّده ما ذكر السّهيلي في الرّوض الأنف: أنّ ذلك الموضع منه يوسوس الشّيطان لابن آدم، حيث يدخل خرطومه إلى قلبه يوسوس، فإذا ذكر العبدُ اللهَ تعالى خنس.

(كَزِرِّ الحَجَلَهْ) قيل: الحجلة: الطّير المعروف، أنثى القبجة، وزرّها: بيضها. ويؤيّد هذا حديث آخر جاء فيه: (مثل بيضة الحمامة).

وقيل: الحجلة: القبة التي تعلّق على السّرير ويزيّن بها للعروس، وهي ذات أزرار وعُرى.(1)

أَوْ مِـثْـلِ جُـمْـعٍ حَـوْلَـهُ خِـيـلانُ   مِـثْـلُ الـثَّـآلِـيـلِ بِـهِ تَـزْدَانُ

(أَوْ مِثْلِ جُمْعٍ) أي كجُمْع الكفّ، وهي صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمّها2 (حَوْلَهُ خِيلانُ) جمع خال، وهو الشّامة في الجسد(3) (مِثْلُ الثَّآلِيلِ) جمع ثُؤْلُول، حبّ يظهر على الجسد كالحمّصة فما دونها، وقال القرطبي في المفهم: نقط سود كانت على الخاتم، شبّهها بها لسعتها، لا أنّها كانت ثآليل (بِهِ تَزْدَانُ) أي تتزيّن.

فائدة:

قال القاضي عياض: رواية «جمع الكفّ» يخالفها روايتا «بيضة الحمام» و«زرّ الحجلة»؛ فتؤول على وفق الروايات الكثيرة، أو كهيئة الجمع لكنّه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة.(4)

---

(1) قال بعضهم:

حَجَلَةٌ كَقُبّةٍ أو طَيْرُ   زِرُّ العُرَى أو بيضَةُ ذا الزِّرُّ

(2) الشيخ سيلوم:

والجُمْعُ بالضَّمِّ لِقَبْضِ الكَفِّ   مَعَ الأَصَابِعِ بُعَيدَ العَطْفِ

(3) الشيخ سيلوم:

والخَالُ هُوَ الشَّامُ فِي الأَبْدَانِ   يَبْدُو ويُجْمَعُ على خِيلانِ

(4) خاتم النبوة من أكثر ما اختلف الرواة في وصفه من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء فيه روايات كثيرة جدا تكلم عنها رواية ودراية شراح الشمائل.

كَـانَ مَسِــــيحَ الـقَـدَمَـيْـنِ، يَـنْـبُـو   عَـنْ قَـدَمَـيْـهِ الـمَـاءُ إِذْ يُصَـــبُّ

و(كَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (مَسِيحَ) ممسوح، (فعيل) بمعنى (مفعول) ظاهر (القَدَمَيْنِ،) أي أملسهما مستويهما ليّنهما، فليس فيهما نتوء، ولا تكسّر، ولا تشقّق؛ ولذلك (يَنْبُو) يتباعد، يقال: نبا الشّيء تجافى وتباعد، وبابُه "سما" (عَنْ قَدَمَيْهِ المَاءُ إِذْ) ظرف لحدث ماض بمعنى "حين" (يُصَبُّ) يُسْكَب. والمراد أنّه يتجافى وينحدر ويسيل سريعا لملاستهما ولينهما.

خُمْصَـــانَ الاَخْمَصَـــيْنِ، ذا حُمُوشَـــهْ   في سَـــاقِـهِ، عَقِبُـهُ مَنْهُوشَـــهْ

(خُمْصَانَ) -بضمّ الخاء وفتحها-: ضامر (الاَخْمَصَيْنِ) تثنية أخمص، وهو ما ارتفع عن الأرض في وسط القدم من تحتها، وهو الموضع الذي لا يمسّ الأرض عند الوطء[1]. أراد أنّ ذلك منه مرتفع، وأنه ليس بأَرَحَّ، وهو الذي يستوي باطن قدمه حتّى يمسّ جميعُه الأرضَ.

والمراد أنّه ضامر بطن القدم ضُمرا متوسّطا، وهو ممدوح. قال ابن الأعرابي: إذا كان خمص الأخمصين بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفل القدم جدّا فهو أحسن ما يكون، فإذا استوى أو ارتفع جدا فهو ذمّ، ذكره ابن منظور.

(ذا) صاحب (حُمُوشَهْ) أي دقّة، قَالَ القَاضِي عياض: حموشة السَّاق دقّتها، يُقَال: "حمشت قَوَائِم الدَّابَّة" إِذا دقَّتْ، (فِي سَاقِهِ) أي ساقيه، والإفراد للجنس أو لضرورة الوزن.

والحموشة مِمَّا يمتدح بِهِ، وَقد أَكثر أهل القيافة من مدحها وذكر محاسنها وفوائدها.

روى التّرمذي في الشّمائل عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: (كَانَ فِي سَاقَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمُوشَةٌ)[2].

---

(1) الشيخ سيلوم:

خمْصانُ ضامِرٌ، ومعنى الأَخْمَصَيْنْ   تثنيةُ الأَخْمَصِ بطْنَا القَدَمَيْنْ

(2) الشيخ سيلوم:

حُمُوشَةٌ بِضَمِّ حـاءٍ مُهْمَلِ   تَفْسِيرُها بدِقّةِ السّاقِ جَلي

والقَصْدُ بالدّقّةِ نفيُ ما لا   يَجْمُلُ مِـــنْ غِلَظِهَا إجْمالا

(عَقِبُهُ) العقب: مؤخّر القدم (مَنْهُوشَهْ) بالسّين المهملة عند الجمهور، ويروى بالشّين المعجمة. والمنهوس من الرِّجَال قَلِيل اللَّحْم، كأنّه نُهِسَ فإنّ النَّهْس هو أخذ اللّحم بالأسنان، ومَنْهُوسُ الْعَقِبِ: قَلِيلُ لَحْمِهِ[1].

يُـقْـبِـلُ فِـي الْـتِـفَـاتِـهِ جَـمِـيـعَـا   وَكَـانَ هَـوْنًـا مَشْـــيُـهُ ذَرِيـعَـا

(يُقْبِلُ فِي الْتِفَاتِهِ جَمِيعَا) يعني أنّه صلّى الله عليه وسلّم لا يسارق النّظر، ولا يلوي عنقه يمنة ويسرة إذا نظر إلى الشّيء، فِعْلَ الطّائش العَجِلِ الخفيف، ولكن كان يُقْبِلُ جميعا ويُدْبِرُ جميعا؛ أي بجميع بدنه لأنّ ذلك أليق بجلالته ومهابته.

روى البخاري في الأدب المفرد عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: (كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا التفت التفت جميعا).

(وَكَانَ هَوْنًا مَشْيُهُ) "هَوْنًا" خبر "كان" مقدّم، بمعنى هيّنًا أو مشيًا هيّنًا، إلّا أنّ في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة، والهون: الرّفق واللّين، والمراد: برفق وسكينة وتثبّت ووقار وحلم وأناة وعفاف وتواضع، فلا يضرب بقدمه الأرض، ولا يخفق بنعله بطرًا.

وقد أثنى الله تعالى على الذين يمشون هذه المشية، فقال سبحانه: **(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا)** [الفرقان: 63] قال ابن عبّاس: (هَوْناً): بالطّاعة والعفاف والتّواضع. رواه ابن أبي حاتم في تفسيره. ولا يخفى أنّه صلّى الله عليه وسلّم أثبت منهم في ذلك، لأن كلّ كمال في غيره فهو فيه أكمل.

---

(1) الشيخ سيلوم:

وكانَ خيرُ الخَلْقِ مَنْهوسَ العَقِبْ   وشَرْحُهُ بِقِلَّةِ اللَّحْمِ انْتُخِبْ

وهُوَّ بالسّينِ الـــتـــي أُهْمِلَتِ   وقيلَ لا بـلْ هُوَ بالـمُعْجمةِ

قال العلّامة محمّد الطّاهر ابن عاشور في "التحرير والتنوير":

(والمَشْيُ الهَوْنُ: هو الَّذِي لَيْسَ فِيهِ ضَرْبٌ بِالأقْدامِ وخَفْقُ النِّعالِ، فَهو مُخالِفٌ لِمَشْيِ المِتَجَبِّرِينَ المُعْجَبِينَ بِنُفُوسِهِمْ وقُوَّتِهِمْ. وهَذا الهَوْنُ ناشِئٌ عَنِ التَّواضُعِ لِلَّهِ تَعالى والتَّخَلُّقِ بِآدابِ النَّفْسِ العالِيَةِ وزَوالِ بَطَرِ أهْلِ الجاهِلِيَّةِ، فَكانَتْ هَذِهِ المِشْيَةُ مِن خِلالِ الَّذِينَ آمَنُوا عَلى الضِّدِّ مِن مَشْيِ أهْلِ الجاهِلِيَّةِ. وعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ أنَّهُ رَأى غُلامًا يَتَبَخْتَرُ في مِشْيَتِهِ فَقالَ لَهُ: (إنَّ البَخْتَرَةَ مِشْيَةٌ تُكْرَهُ إلّا في سَبِيلِ اللَّهِ). وقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعالى أقْوامًا بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: (**وعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلى الأرْضِ هَوْنًا**) فاقْصِدْ مِن مِشْيَتِكَ، وحَكى اللَّهُ تَعالى عَنْ لُقْمانَ لِابْنِهِ (**ولا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحًا**) [لقمان: ١٨].

والتَّخَلُّقُ بِهَذا الخُلُقِ مَظْهَرٌ مِن مَظاهِرِ التَّخَلُّقِ بِالرَّحْمَةِ المناسِب لِعِبادِ الرَّحْمَنِ؛ لِأنَّ الرَّحْمَةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ فالهَوْنُ يُناسِبُ ماهِيَّتَها وفِيهِ سَلامَةٌ مِن صَدْمِ المارِّينَ.)اهـ

(ذَرِيعًا) خبر بعد خبر. وذريعُ المِشْية: سريعُها مع سعة الخطوة خِلْقَةً بلا تكلُّف، مِنْ قولهم "فرس ذريع" أي واسع الخطو بين الذّراعين، وهي المشية المحمودة للرّجال، وأما النّساء فإنّهن يوصفن بقصر الخطا.

فمَعَ كَون مَشْيه هونا فإنّه كَانَ يمدّ خطوته حَتَّى كَأَن الأَرْض تطوى لَهُ إِذا مَشى.

يَزُولُ قَلْعًا إنْ مَشَى، وَيَخطُو تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ
مِنْ صَبَبٍ، وكَانَ جُلُّ نَظَرِهْ لَحْظًا، ومِنْ سِيمَاهُ غَضُّ بَصَرِهْ

(يَزُولُ) ينتقل، مِنْ زال يزول: إذا فارق مكانه (قَلْعًا) حال، أو مصدر على تقدير مضاف، أي: زوال قلع، وفيه خمسة أوجه: 1/2/3– فتح أوّله مع تثليث ثانيه، أي: فتحه وكسره وسكونه، و4/5– ضمّ أوّله مع سكون ثانيه وفتحه. (إِنْ مَشَى) أي أنّه كان إذا مشى يمشي حال كونه رافعا رجليه بقوّة كأنّه يقلع شيئا من الأرض، أي رافعا لها رفعا بائنا مع السّرعة

متداركا إحدى رجليه بالأخرى، مشية أهل الجلادة والهمّة والقوّة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، ولا يجرّهما حال مشيه، كمشية المختال والعاجز والكسلان، وهي مشية النّساء والمتشبّه بهنّ.

والقلع- في الأصل-: انتزاع الشّيء من أصله، أو: تحويله عن محلّه.

وكلاهما صالح لأَنْ يُراد هنا، لأنّه يرفع رجله بقوّة ويحوّلها كذلك.

قال ابن القيم في "زاد المعاد": (التقلّع الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحطّ من الصّبب، وهي مشية أولي العزم والهمّة والشّجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من النّاس يمشي قطعة واحدة كأنّه خشبة محمولة، فهي مذمومة، وإمّا أن يمشي بانزعاج مشي الجمل الأهوج وهي مشية مذمومة، وهي علامة خفّة عقل صاحبها ولا سيّما إن أكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالا.)اهـ

(وَيَخطُو) أي يمشي حال كونه (تَكَفُّؤًا) والتكفّؤ: الميل إلى سَنَن المشي، أي إلى قدّام، كالسّفينة في مشيها (كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ) الانحطاط: النّزول والإسراع. وأصله الانحدار من علوّ إلى سفل، (مِنْ) بمعنى "في" (صَبَبٍ) هو ما انحدر من الأرض.

روى التّرمذي في الشّمائل عن عليّ بن أبي طالب: (إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ). وهي كناية عن سرعة مشيه، فإنّ الماء أسرع ما يكون جاريا إذا كان منحدرا.
روى التّرمذي في الشّمائل عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ). أي: غير متكلّفٍ سرعة المشي لأن سرعته صلى اللّه عليه وسلّم كانت من كمال القوّة لا من تكلّف المشقّة والجهد والعجلة المذهبة للبهاء والوقار.

والانحدار من الصّبب والتّقلّع من الأرض متقاربان. قاله الهيثمي في أشرف الوسائل.

(وَكَانَ جُلُّ) معظم وأكثر (نَظَرِهْ لَحْظًا) اللَّحْظ هو النّظر باللّحاظ، وهو شقّ العين الذي يلي الصّدغ[1].

(ومِنْ سِيمَاهُ) علامته (غَضُّ بَصَرِهْ) أي كفّه وخَفضه وكسره.

روى التّرمذي في الشّمائل من حديث هند أنّه صلّى الله عليه وسلّم (خَافِضُ الطَّرْفِ، نَظَرُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، جُلُّ نَظَرِهِ الْمُلَاحَظَةُ).

الخفض ضد الرفع، والطّرف العين، أي: إذا نظر إلى شيء خفض بصره، ولا ينظر إلى الأطراف والجوانب بلا سبب، بل لم يزل مطرقًا متوجّهًا إلى عالم الغيب، مشغولًا بحاله، متفكّرًا في أمور الآخرة، لأنّ هذا شأن المتواضع، وهو متواضع سليقة، وشأن المتأمّل المتفكّر المشتغل بربّه، وقيل: هو كناية عن شدّة حيائه، أو لين جانبه، أو عدم كثرة سؤاله واستقصائه إلّا في واجب.

وأردفه بما هو كالتّفسير له أو التّأكيد فقال (نظره إلى الأرض) حال السّكوت، وعدم التحدث (أطول) أي أكثر (من نظره إلى السّماء)؛ لأنّه أجمع للفكرة، وأوسع للاعتبار، لاشتغاله بالباطن، وإعمال جنانه فيما بعث لأجله، أو لكثرة حيائه وأدبه مع ربّه، أو لأنّه بعث لتربية أهل الأرض لا أهل السّماء، والأوّل أحسن. قاله الزّرقاني في شرح المواهب.

والنَّظَر -بفتحتين-: تأمّل الشّيء بالعين، كما في الصّحاح.

يَقْلِبُ كَفّيْهِ إذَا هُوَ عَجِبْ ... بِها يُشِيرُ، وَيُشِيحُ إِنْ غَضِبْ

(يَقْلِبُ كَفّيْهِ) أي يجْعَلُ باطنها للأعلى (إِذَا هُوَ عَجِبْ) مِنْ شيء عَظُمَ وقعه عنده، إشارة إلى تقلّب ذلك الأمر المتعجَّب منه، أو اكتفاءً بالفعل عن القول في إظهار التعجّب.

---

(1) الشيخ سيلوم:

معنى المُلاحَظَةِ للحُفَّاظِ ... واللَّحْظِ أيضًا نَظَرُ اللّلَحَاظِ

يُعْنَى بِـــهِ مُؤَخَّرُ العَيْنَيْنِ ... وكانَ شـــأْنَ سَيِّدِ الكَونينِ

و(بِها) أي بكفّه كُلّها (يُشِيرُ) إذا أشار إلى شيء، قصدا للإفهام ودفعا للإبهام، ولا يقتصر على الإشارة إليه ببعضها، لأنّه شأن المتكبّرين والمختالين والمتجبّرين.

قال ابن الأثير: أراد أنّ إشارته مختلفة، فما كان منها في ذكر التّوحيد والتّشهّد كان بالمسبّحة وحدها، وَمَا كَانَ فِي غير ذلك كان بكفّه كلّها ليكون بين الإشارتين فرق.

روى التّرمذي في الشّمائل في حديث هند: (إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا).

(وَ) يُعرِضُ عمّن أغضبه من غير لوم له، لشدّة حلمه صلّى الله عليه وسلم، ولا يقابله بما يقتضيه الغضب امتثالا لقوله تعالى (وَأَعْرِضْ عَنِ اَلْجَاهِلِينَ)، و(يُشِيحُ) أي يبالغ ويزيد في الإعراض والعفو والصّفح، فيقابله بالجميل ويتقنّع من الرّدّ والتّأدّب معه بالقليل. قاله الهيثمي.

قال هند: (وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ).

هذا هو المراد هنا، وإن كان معنى "أشاح" في الأصل: تنحّى، أو انكمش، أو منع، أو صرف، أو قبض وجهه. قاله الباجوري في المواهب اللّدنية.

(إِنْ) هو (غَضِبْ) مِنْ أحدٍ. وَكان صلّى اللّه عليه وسلّم (لَا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا، وَلَا مَا كَانَ لَهَا، فَإِذَا تُعُدِّيَ الْحَقُّ لَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ، وَلَا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَنْتَصِرُ لَهَا) كما قال هند.

ويَسْـــتَـنِـيـرُ وَجْـهُـهُ إذا يُسَـــرْ   كَـأنَّـهُ فِـي الحُسْـــنِ قِـطْـعَـةُ قَـمَـرْ

(ويَسْتَنِيرُ) أي يضيء (وَجْهُهُ) صلّى الله عليه وسلّم (إِذَا يُسَرْ كَأَنَّهُ) أَي الموضع الَّذِي يتَبَيَّن فِيهِ السّرُور وَهُوَ جَبينه، والجبين فوق الصدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها (فِي الحُسْنِ) والإشراق والاستنارة (قِطْعَةُ قَمَرْ)، ووجه عدول كعب بن مالك في وصفه في الحديث عن عادة البلغاء من تشبيه الوجه بالقمر بغير تقييدٍ بقطعة –مع كونه من شعراء الصّحابة وحكمائهم– : أنّه إنّما أراد تشبيه قطعة من وجهه، وهي جبينه إذا سرّ، وحينئذ لا يسعه أن يشبّه هذه

القطعة بالقمر جميعه، لأنّ في رواية عنه شبّه الوجه جميعه بـ"دارة القمر" فلزمه تشبيه بعضه ببعضه.

وقَالَ ابْن حجر: لَعَلَّه حِين كَانَ متلثّما وَالْمحلّ الَّذِي يتَبَيَّن فِيهِ السرُّور جبينه وَفِيه يظْهر السرُّور فَوَقع الشّبَه على بعض الْوَجْه فَنَاسَبَ تشبيهه بِبَعْض الْقَمَر.

قَالَ: وَيحْتَمل أنه أَرَادَ بِقِطْعَة قمر القمر نَفسه.

أخرج البُخَارِيّ ومسلم عَن كَعْب بن مَالك قَالَ: (كَانَ رَسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وَسلّم إِذا سُرَّ استنار وَجهه كَأَنَّهُ قِطْعَة قمر، وَكُنَّا نَعْرِف ذَلِك مِنْهُ).

وَما فِي الطَّبَرَانِيّ عَن جُبَير بن مطعم: (الْتفت بِوَجْهِهِ مثل شُقّة –أي: قطعة– الْقَمَر)، فَهَذَا مَحْمُول على صفته عِنْد الِالْتِفَات.

وَغَـالِـبًـا يُـكْـثِـرُ مَـسَّ لِـحْـيَـتِـهْ عِـنْـدَ اهْـتِـمَـامِـهِ بِـأَمْـرِ أُمَّـتِـهْ

(وَغَالِبًا يُكْثِرُ مَسَّ لِحْيَتِهْ عِنْدَ اهْتِمَامِهِ بِأَمْرِ أُمَّتِهْ) يعني أنّه صلّى الله عليه وسلّم كَانَ إذا اهتمّ أكثر من مسّ لحيته فيُعرف بذلك كونه مهموما.

ولم يكن صلّى الله عليه وسلّم يهتمّ لأمر من أمور الدّنيا، بل كان همّه لأمر أمّته.

وقَالَ بعضهم: وَيجوز كَون مَسّه لَهَا تَسْلِيمًا لله بِنَفسِهِ وتفويضا لأمره إِلَيْهِ فَكَأَنَّهُ موجّه نَفسه إِلَى مَوْلَاهُ.

روى ابْن السّني عَن عَائِشَة، وَأَبُو نعيم والبزار عَن أبي هُرَيْرَة (كَانَ صلّى اللّه عليه وسلّم إذا اهتَمَّ أَكْثَرَ مِنْ مَسّ لحيته).

وَرُبَّـمَـا بِـعُـودٍ اوْ بِـمِـخْـصَـرَهْ نَـكَـتَ فِـي الْأَرْضِ لِـهَـمٍّ أَضْـمَـرَهْ

(وَرُبَّمَا بِعُودٍ اوْ بِمِخْصَرَهْ) المِخصرَة: شَيْء يَأْخُذهُ الرّجل بِيَدِهِ ليتوكّأ عَلَيْهِ من عَصا أو عكّاز أو قضيب أو نَحْوها. سُمّيت بذلك لأنها تُحْمَلُ تحت الخَصْر غالبًا للاتّكاء عليها، (نَكَتَ فِي

(الأَرْضِ) أي: ضَرَب بها الأرض فأثّر فيها (لِهَمٍّ) الهمّ: الحزن الشّديد (أَضْمَرَهْ) غيّبه في قلبه وأخفاه.

روى البُخَارِيّ ومُسْلِمٌ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}. [الليل: 6]

قوله (فنكس) بتشديد الكاف وتخفيفها، أي خفض رأسه وطأطأ به إلى الأرض على هيئة المهموم المفكّر، كما هي عادة من يتفكّر في شيء حتّى يستحضر معانيه، فيحتمل أن يكون ذلك تفكّرًا منه عليه الصّلاة والسّلام في أمر الآخرة بقرينة حضور الجنازة، أو فيما أبداه بعد ذلك لأصحابه من الحكم المذكورة، وَيحْتَمل أَيْضا أَن يُرَاد بنكس: نكس المخصرة.

وكَـانَ يَـتَّـكـي عَـلَـى وِسَـــادَهْ   عَلَى اليَسَـــارِ بَعْضُـــهُمْ قَـدْ زَادَهْ

(وكَانَ) صلّى الله عليه وسلّم (يَتَّكي) يعتمد (عَلَى وِسَادَهْ) الوِسادة والوِساد: هي المِرفقة، ويقال لها اليوم: "مِخدّة"، والجمع وسائد ووُسُد، (عَلَى اليَسَارِ) كما في حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عند التّرمذي في الشّمائل قَالَ: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ عَلَى يَسَارِهِ) أي حال كونها موضوعة على جانبه الأيسر؛ وهو لبيان الواقع لا للتّقييد، فيجوز الاتّكاء على الوسادة يمينا ويسارا (بَعْضُهُمْ) وهو إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ (قَدْ زَادَهْ) في روايته لحديث جابر متفرّدا بذلك. قال التّرمذي في الشّمائل عقب رواية وكيع للحديث –وليس فيها زيادة: "على

يساره"–: (لَمْ يَذْكُرْ وَكِيعٌ عَلَى يَسَارِهِ، وَهَكَذَا رَوَى غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ إِسْرَائِيلَ نَحْوَ رِوَايَةِ وَكِيعٍ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا رَوَى فِيهِ عَلَى يَسَارِهِ إِلَّا مَا رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنِ إِسْرَائِيلَ). ولذلك قال في الجامع: (هذا حديث حسن غريب).

ورُبّمَا اسْـتَلْقى ورُبَّمَا احْتَبى ... بِمَسْـجِدٍ، والقُرْفُصَـا كَـالِاحْتِبَا

(ورُبّمَا اسْتَلْقَى) صلّى الله عليه وسلّم، والاستلقاء: هو الاضطجاع على القفا، سواء كان معه نوم أم لا[1].

روى الترمذي في الشّمائل عَنْ عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ: (أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى)، مع نصب الأخرى، أو مدّها.

وفيه جواز وضع الرّجل على الأخرى حال الاستلقاء، مع مدّ الأخرى أو رفعها.

لكن يعارض ذلك رواية مسلم عن جابر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: (لا يستلقينّ أحدكم ثمّ يضع إحدى رجليه على الأخرى).

وجُمِع بأن الجواز لمن لم يخف انكشاف عورته بذلك كالمتسرول مثلا، والنهي خاصّ بمن خاف انكشاف عورته بذلك كالمؤتزر.

وإنما أطلق النّهي لأن الغالب فيهم الاتّزار.

نعم، الأولى خلافه في مجامع الناس وبحضرة من يحتشمه وإن لم يخف الانكشاف، لا كَخَدِمه وأصاغر جماعته، والظّاهر من حال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أنّه إنّما فعله عند خلوّه ممن يحتشم منه.

---

(1) خلافا لما في القاموس: (استلقى عل قفاه: نام).

وهذا الجمع- كما قال الحافظ ابن حجر- أولى من ادّعاء النّسخ، لأنّه لا يصار إليه بالاحتمال، وأولى من زعم أنّه من خصائصه، لأنه لا يثبت بالاحتمال أيضا، ولأنّ بعض الصّحب كانوا يفعلونه بعد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بالمسجد ولم ينكره عليهم أحد.

(ورُبَّمَا احْتَبَى) الاحتباء: أن يجلس على أَلْيَيْه -تثنية ألية، وهي: العجيزة-، ويضمّ رجليه إلى بطنه بنحو عمامة يشدّها عليهما وعلى ظهره.

هذا معنى الاحتباء، وهذه كيفيته بحسب الاستعمال الكثير المعروف المألوف.

قال الحافظ ابن حجر: والاحتباء جِلسة الأعراب، ومنه: "الاحتباء حيطان العرب". أي: كالحيطان لهم في الاستناد، فإذا أراد أحدهم الاستناد احتبى، لأنّه لا حيطان في البراري، فيكون الاحتباء بمنزلة الحيطان لهم.

وفي الشّفا: كان أكثر جلوسه صلّى الله عليه وسلّم محتبيا.

روى التّرمذي في الشّمائل عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ احْتَبَى بِيَدَيْهِ). زَاد الْبَزَّار: وَنصب رُكْبَتَيْهِ، أَي جمع سَاقيه إِلَى بَطْنه مَعَ ظَهره بيدَيْهِ عوضا عَن جَمعهمَا بِالثَّوْبِ.

(بِمَسْجِدٍ،) متعلق بـ"استلقى" و بـ"احتبى".

(والقُرْفُصَا) بضم القاف والفاء مع المد، وبكسرهما مع القصر، وقصرها النّاظم هنا للوزن، قال أهل الغريب: أن يجلس الرجل على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه كما يحتبي بالثّوب تكون يداه مكان الثوب، نقله في الصّحاح عن أبي عبيد، وعليه فتكون (كَالاِحْتِبَا) وبذلك فسّرها البخاري؛ وقيل: هي أن يجلس على رجليه، ويجمع ركبتيه، ويضمّ بطنه إلى فخذيه واضعا يديه تحت إبطيه، وهي جلسة الأعراب.

روى التّرمذي في الشّمائل عَنْ قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهَا رَأَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ قَاعِدٌ الْقُرْفُصَاءَ قَالَتْ: (فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَخَشِّعَ فِي الْجِلْسَةِ أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرَقِ). أي: الخوف والفزع النّاشئ ممّا علاه صلّى الله عليه وسلّم من عظيم المهابة والجلالة.

و" أُرْعِدَتْ": أي أخذتها الرّعدة، وهي اضطراب المفاصل خوفا.

يَجْلِسُ حَيْثُ مَجْلِسٌ بِهِ انْتَهَى صَلّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِلا انْتِهَا

(يَجْلِسُ) صلّى الله عليه وسلّم (حَيْثُ) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ (مَجْلِسٌ بِهِ انْتَهَى) أي: وصل، ولم يتقدّم عليهم ولم يتميّز عنهم بل كان يجلس حيث اتّفق معهم لكرم أخلاقه ومزيد تواضعه إذ لم يتكلّف خطوة زائدة على الحاجة لحظّ نفسه حتّى يجلس صدر المجلس؛ ولأنّ القصد من قطع الطريق وتعب المشي البلوغ والوصول إلى القوم، فإذا وصل إلى أوّلهم كان المشي بعد ذلك عبثا وتكبّرا لا يليق بحال العاقل، فضلا عن الفاضل، فضلا عن أفضل الناس.

روى التّرمذي في الشّمائل من حديث هند: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْتَهَى إِلَى قَوْمٍ جَلَسَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ، وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ) أي: بالجلوس حيث انتهى المجلس إعراضا عن رعونات النّفس وأغراضها الفاسدة المنبئة عن مزيد التّكبر والتّرفع، تأكيدا للأمر بالقول بانضمامه إلى الفعل، ويقول: (إنّ الله يكره عبده أن يراه متميّزا عن أصحابه).

وقد ورد أمره بذلك فيما رواه الطبرانيّ والبيهقيّ عن شيبة بن عثمان مرفوعا: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس، فإن وُسّع له فليجلس، وإلّا فلينظر إلى أوسع مكان يراه، فليجلس فيه).

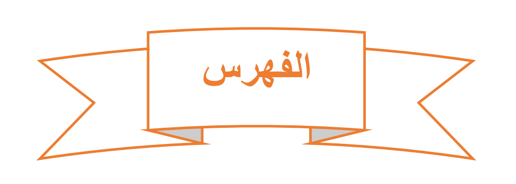
وبالجملة فقد ثبتت مشروعية ذلك فعلا وأمرا.

(صَلّى عَلَيْهِ رَبُّهُ بِلا انْتِهَا) اللهم صلّ وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدّين.

اللهم ارزقنا شفاعته وأوردنا حوضه ولا تحرمنا جواره في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين.

تمّت وبالخير عمّت



الموضوع	الصفحة